

**العدول عن مبدأي الكم والمناسبة في مطابقة الجواب للسؤال عند العيني في
عمدة القاري: مقارنة تداولية حجاجية**

د. عزة علي أحمد الغامدي

أستاذ اللغويات المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية التربية

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز



العدول عن مبدأي الكم والمناسبة في مطابقة الجواب للسؤال عند العيني في عمدة القاري:

مقاربة تداولية حجاجية

د. عزة علي أحمد الغامدي

أستاذ اللغويات المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية التربية

جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

تاريخ تقديم البحث: ١٤٤٦ / ٥ / ٢ هـ تاريخ قبول البحث: ١٤٤٦ / ٦ / ٧ هـ

ملخص الدراسة:

يسعى هذا البحث إلى دراسة (العدول عن مطابقة الجواب للسؤال) في الفكر التأويلي لدى العيني (ت ٨٥٥هـ) من خلال شرحه الموسوم بـ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري)، وينطلق من افتراض مفاده أن الخطابات الحوارية لا تخلو من ثنائية السؤال والجواب، وأن الجواب لما كان مبيهاً على السؤال، متعلقاً معه حوارياً، وجب أن يطابقه في التركيب والدلالة، ومن ثم فإن العدول عن تلك المطابقة لا يكون إلا لأغراض تواصلية تبليغية يتوخاها المحيب، وهو ما حاول العيني استجلاءه في شرحه للنصوص الحديثية. وقد اتخذ البحث من المنهج التداولي أداة للتحليل، بكل آلياته التي تعنى بالجوانب السياقية والإدراكية والحجاجية، مستثمراً مبدأين من مبادئ نظرية التعاون عند جرايس (Grice)، وفي ضوء ذلك قُسم العمل إلى مبحثين: تناول المبحث الأول (العدول الكمي)، وتناول المبحث الثاني: العدول عن مبدأ الصلة (المناسبة).

الكلمات المفتاحية: المطابقة، العدول، السؤال والجواب، مبدأ الكم، مبدأ الصلة.

Deviation from Agreement between Question and Answer in Al-Cayni's Interpretive Explication in "Umdat al-qari": A Pragmatic and Argumentative Approach

Dr. Azza Ali Ahmad Al-Ghamdi

Associate Professor of Linguistics· Department of Arabic Language and Literature - College of Education
Prince Sattam bin Abdulaziz University

tract:

This paper studies Agreement Deviation between Questions and Answers in Al-Cayni's interpretive approach in his book: (CUmdat al-qari Sharh Sahih Al-Bukhari) of Al-Bukhari's Collection of the Prophet (PBUH) Hadith. The paper is based on a hypothesis that most interlocution discourses have pairing of Questions and Answers and since Answers saying who or what the action would be and related to Questions in discourse they must agree with them in structure and semantics. Accordingly deviation from that agreement is possible only for communicative and informative purposes the interlocutor expects and that is what Al-Cayni tried to clarify in his commentaries. The paper utilizes a pragmatic approach with all its techniques. It comes in two subsections: the first deals with deviation from the Maxim of Quantity the Second on deviation from the Maxim of Relevance.

Keywords: Agreement Deviation Interlocution Maxim of Quantity Maxim of Relevance

المقدمة

إن ثنائية السؤال والجواب من المسائل التي لا تخلو منها العمليات التخاطبية على اختلاف مستوياتها اللغوية، وتنوعها المرجعي والأجناسي، فالتحاورون يسعون دائماً إلى الفهم والإفهام من خلال طرح الأسئلة والأجوبة التي تروم اكتساب المعرفة، واستجلاء الغموض، والوصول إلى الحقائق، والإدلاء بالحجج، وتبليغ الأفكار.

وقد اهتمت الخطابات الشارحة للمتون التراثية - الشعرية منها والنثرية على السواء- بقضايا السؤال والجواب، وعنيت بمسألة مطابقة الجواب للسؤال على المستوى الدلالي والتركيبي والتداولي، وعُدَّت تلك المطابقة هي الأصل بوصف السؤال طلباً للجواب، والجواب مبنياً على السؤال، ومن ثم كان عدول الجواب عن تلك المطابقة خروجاً عن الأصل، ومثارَ مشكلٍ قاد الشراح إلى وقفة بحثية تأملية، لا تكتفي بالتفسير وإنما تنزع إلى التأويل والتحليل والكشف عن المغزى.

ومن هنا عنّ لهذا البحث دراسة موضوع (العدول عن مطابقة الجواب للسؤال) مستثمراً مبدأين من مبادئ التعاون عند جرايس (Grice): مبدأ الكم، ومبدأ الصلة (المناسبة)، وذلك من منظور الخطابات الشارحة التي تعرب عن الفكر التأويلي عند شراحها، ويأتي على رأسها شروحات النصوص الحديثة، فالأحاديث بطبيعتها هي حوارات نوعية متبادلة، لها سياقها الزمني والتاريخي والثقافي الزاخر بالكثير من الأحداث الساردة لوقائع قولية وسلوكية تهدف إلى التعليم والتشريع والإفتاء، ومن ثم كانت نبغاً ثراً يفيض بشتى الأسئلة

والأجوبة التي تحتاج من الشارح اللساني وقفة تأويلية فاحصة لمقاصدها التبليغية، وانزياحاتها الدلالية والتركيبية، ومن هنا اختار هذا البحث شرح العيني الموسوم بـ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) لاهتمام الشارح بالمواضع التي عدل فيها الجواب عن مطابقة السؤال في نصوص الحديث، وما تثيره من إشكالات وافتراضات، وما تنطوي عليه من معان صريحة ومضمرة.

ولم يقع هذا البحث على دراسات تناولت موضوع العدول عن مطابقة الجواب للسؤال في النصوص الحديثية، بيد أن ثمة دراسة للباحث عبد الله محمد هنداوي بعنوان (مطابقة الجواب للسؤال في النظم القرآني)، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، ١٩٩٥م، عرض فيها الباحث لقضايا متنوعة تشتمل عليها مسألة المطابقة في النظم القرآني، كالمشكلة اللفظية بين السؤال والجواب، والعدول في الجواب عما يقتضيه السؤال، والجواب بالزيادة عما يطلبه السؤال، والسؤال والجواب بين الذكر والحذف، وهي دراسة وصفية تناولت الأغراض البلاغية الثابوية خلف تلك المباحث المتصلة بالسؤال والجواب مستعينةً بأراء المفسرين. ومثلها دراسة للباحث حسين الشربيني بعنوان: (السؤال والجواب في النظم القرآني)، حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، جامعة الأزهر، العدد ٧، ٢٠١٥م، غير أنها لم تخصص موضوع (المطابقة) بالبحث، ولكنه جاء بوصفه مبحثاً من مباحث الدراسة، وهي كسابقتها سعت إلى بيان الفوائد البلاغية التي تثيرها قضايا السؤال والجواب.

وثمة دراسات تطبيقية عديدة عنيت بثنائية السؤال والجواب في النصوص الشعرية والنثرية من جوانب أخرى لا تتصل بموضوع المطابقة، ولعل هذا البحث

يختلف عما سبقه من حيث العناية بمسألة عدول الجواب عن مطابقة السؤال في مدونة حديثة، مستعيناً بمبادئ نظرية جرایس في التعاون الحواري التي سبقت الإشارة إليها.

ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما مظاهر عدول الجواب عن مطابقته للسؤال في تأويلات العيني للنصوص الحديثة؟
 - ما الأغراض التواصلية التبليغية التي يتوخاها المجيب في عدوله عن مطابقة جوابه للسؤال من وجهة نظر العيني؟
 - ما منهجه في معالجته لعدول الجواب عن مطابقة السؤال؟
 - ما الأبعاد الحجاجية للعدول عن المطابقة؟
 - بمَ اتسمت اللغة التأويلية الشارحة لدى العيني في تناوله للموضوع؟
- ومن تلك المنطلقات يهدف هذا البحث إلى:

- استجلاء أهم أنماط عدول الجواب عن مطابقة السؤال من وجهة نظر العيني في النصوص الحديثة التي عالجها.
- تقصي التحليلات التي انتهجها والآراء التي ناقشها في سبيل الكشف عن أسباب العدول، وأبانت عن منهجه التأويلي.
- رصد الأبعاد التداولية الحجاجية التي عني بها في تناوله لمسألة عدول الجواب عن مطابقة السؤال.

ومما يجدر ذكره أنه ليس من هدف هذا البحث الإتيان على كامل النصوص الحديثة التي احتوت عليها مدونة العيني الشارحة لصحيح البخاري،

وإنما انتخب البحث من النصوص الحديثة ما يحقق أهدافه، ويجيب عن تساؤلاته، ويفصح عن سمات التأويل التداولي لدى الشارح في تناوله لموضوع البحث.

واتخذ هذا البحث من التحليل التداولي منهجًا للدراسة بكل أبعاده الحجاجية والإدراكية، من حيث إن المنهج التداولي يتجاوز المستوى البنيوي للخطاب، وما تعنيه الأقوال في ذاتها، إلى الكشف عن القصدية والتضمينات الحوارية المراد تبليغها، من خلال تفعيل القدرات الاستدلالية الذهنية التأويلية التي تأخذ في الحسبان كل ما يوطر الخطاب من سياقات لغوية ومقامية وإدراكية تؤثر في فعلي الإنتاج والتلقي.

وقد بدأ البحث بمقدمةٍ ثم تمهيدٍ موجز يهدف إلى التعريف بالعيبي ومدونته (عمدة القاري)، يعقبه توضيح لمفهوم (المطابقة) وأبعادها النحوية والدلالية والتداولية، وتأسيسًا على تناول البحث لمبدأ التعاون لدى جرايس (Grice) قُسم العمل إلى مبحثين: المبحث الأول تناول (العدول الكمي)، والمبحث الثاني سعى إلى استجلاء العدول عن مبدأ (الصلة أو المناسبة)، وقد اقتصر على هذين المبدأين لكونهما من أكثر مبادئ التعاون هيمنة في شرح العيبي وتحليله لثنائية السؤال والجواب، وخلص العمل إلى جملة من النتائج أوجزت في خاتمة البحث التي تلتها قائمة بالمصادر والمراجع.

تمهيد:

- التعريف بالعيني ومؤلفه:

يعد الإمام محمود بن أحمد العيني الملقب بـ (بدر الدين) (ت ٨٥٥هـ) - من أبرز علماء العربية الذين صنفوا في شتى فروعها، ومن كبار المحدثين الذين عنوا بشرح النصوص الحديثية، أثنى عليه جمع من العلماء الأجلاء، يقول عنه السخاوي (٩٠٢هـ) "كان إمامًا عالمًا علامةً عارفًا بالصرف والعربية وغيرها، حافظًا للتاريخ واللغة... وصنف الكثير بحيث لا أعلم بعد شيخنا أكثر تصانيف منه"^(١).

ولعل من أنفس تلك التصانيف شرحه الموسوم بـ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري) - مجال هذا البحث - الذي حوى مباحث ثرة في النحو والصرف والبلاغة والدلالة والتفسير والفقهاء، وقد اختط العيني فيه منهجًا يبدأ بذكر المطابقة بين الحديث وترجمة الباب، والتعريف برجاله وأنسابهم، ويعرج على الأعلام الأخرى التي قد يشملها الحديث ولا سيما المبهم منها، كما يبين أسماء الأماكن إن وجدت، ثم يشرح المفردات شرحًا وافيًا يأتي على ضبطها وبيان معانيها المعجمية وشواردها الصرفية، ثم يورد بيان الإعراب مستشهدًا بالآيات القرآنية وآراء علماء اللغة والنحو، ولا يفوته أن يخص المعاني والبيان ببحث مستقل، ثم يختم بطرح الأسئلة التي تستجلي مختلف الإشكالات التي يثيرها النص الحديثي ويوجب عنها، مع استنباط الأحكام والفوائد. ويتفاوت

(١) السخاوي، شمس الدين محمد بن عد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط ١،

دار الجيل: بيروت، ١٩٩٢م، ١٠/١٣٣.

أسلوب العيني في كل ذلك ما بين الاستقصاء المطول المستفيض والاختصار، وما بين شمول شرحه للحديث الواحد لكل تلك المباحث أو الاقتصار على بعض منها.

ومما يجدر ذكره أن العيني في شرحه للنصوص الحديثية يهتم بشتى الجوانب التواصلية التبليغية، ويعنى بأقطاب الحوار ومقاصدهم التخاطبية، ويلجج إلى بواطن النص من خلال عمليات استدلالية تروم الكشف عن الضمني، واستظهار المعنى الخفي من خلال طرح الأسئلة والأجوبة، وإمالة اللثام عن المشكل في النص، ومن ثم برز اهتمامه بالأسئلة والأجوبة على مستويين: مستوى النص المؤؤل، ومستوى النص التأويلي الشارح.

- مفهوم المطابقة:

لما كان السؤال طلبًا للجواب، أشرت أن يكون الجواب مطابقًا له، مما حدا ببعض اللغويين إلى القول: "والجواب مطابق للسؤال، موافق له على قدره كمطابقة النعلين"^(١)، ويعرف الرماني (ت ٣٨٤هـ) الجواب المطابق للسؤال بأنه: "ذكر ما اقتضاه السؤال من غير زيادة ولا نقصان"^(٢)، وظاهر كلامهم أن معيار المطابقة هو الكم، غير أن تتبع هذا المفهوم عند النحاة واللغويين

(١) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ، تحقيق: محمد باسل، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٦م، ٣/٣٩٦.

(٢) الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، رسالتان في اللغة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر: عمان، ١٩٨٤م، ص ٨١.

والمفسرين يتبين منه أن ثمة جوانب عدة لهذه المطابقة، يمكن عرضها في الآتي مع ذكر نماذج موجزة منها:

١- المطابقة النحوية:

- المطابقة في الإعراب: فحيثما أمكنت مطابقة الجواب للسؤال في الإعراب كانت هي الأولى، ويفهم من توجيه سيبويه (ت ١٨٠هـ) للإعراب في جواب السؤال جنوحه إلى المطابقة الإعرابية وترجيحها على الوجوه الأخرى، فالجيب عن السؤال: (كيف أصبحت؟) يمكن أن يقول: صالح، أي: أنا صالح، ومع ذلك يقول سيبويه: "والنصب في هذا الوجه؛ لأنه الجواب على كلام المخاطب، وهو أقرب إلى أن تأخذ به"^(١)، وكذلك ذهب النحويون من بعده، فحيث تعددت الاحتمالات الإعرابية كان الوجه "حمل الجواب على ما يوجهه إعراب السؤال"^(٢)، وبذلك صرح ابن جني (ت ٣٩٢هـ) على نحو يشبه الإلزام: "وإعراب الجواب على إعراب السؤال، إن رُفِعَ رُفِعَتْ، وإن نُصِبَ نُسِبَتْ، وإن جُرَّ جُرَّتْ"^(٣).

(١) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي: القاهرة، ١٩٨٨م، ٤١٨/٢.

(٢) السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدي، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٨م، ١٨٥/٣.

(٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق: سميح أبي مغلي، دار مجدلاوي: عمان، ١٩٨٨م، ص ١٥٢.

مطابقة نوع الجملة: فإذا كانت جملة السؤال اسمية مثلاً، كانت جملة الجواب كذلك، وبذلك خرج المفسرون الكثير من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۗ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۗ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۗ قُلِ اللَّهُ ۗ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩١]

فلفظ الجلالة (الله) مبتدأ وخبره محذوف "ووجهه مناسبة مطابقة الجواب للسؤال، وذلك أن جملة السؤال اسمية، فلتكن جملة الجواب كذلك" (١).

- مطابقة المكونات النحوية: وقد أوضح ابن السراج (ت ٣١٦هـ) هذه المسألة في قوله: "وإنما الجواب من جنس السؤال، فإذا سُئِلَتْ عن مكان لم يجز أن تخبر بزمان، وإذا سُئِلَتْ عن عدد لم يجز أن تخبر بحال، وإذا سُئِلَتْ عن معرفة لم يجز أن تخبر بنكرة..." (٢).

- المطابقة في الرتبة: وهي مطابقة الجواب للسؤال في ترتيب أجزاء الجملة، فالمقدم في السؤال هو المقدم في الجواب؛ ولذا رفض بعضهم أي تقدير للترتيب يخالف مبدأ المطابقة، وهو ما جرى عليه تخريج النحاة

(١) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٨م، ٨ / ٢٨١.

(٢) ابن السراج، محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط ٣، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٩٦م، ٢ / ١٣٦.

والمفسرين وتحليلهم للنصوص، ففي السؤال: (من عندك؟) لا يميز النحاة أن يكون الجواب (رجلٌ) على تقدير (عندي رجلٌ) إلا على ضعف، وإنما الصواب أن يكون التقدير: (رجلٌ عندي) على الرغم من تنكير المبتدأ، وعللوا عدم الجواز بأنه "يلزم عليه عدم مطابقة الجواب للسؤال في ترتيب أجزاء الجملة"^(١).

٢ - المطابقة الدلالية:

قد يطابق الجواب السؤال في المعنى لا اللفظ، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] جاء السؤال بـ(مَنْ) الواقعة مبتدأ، فكان جوابهم: (خلقهن العزيز العليم)، وهو جواب "مطابق للسؤال من حيث المعنى، إذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال"^(٢)، وقد أكد أبو حيان (ت ٧٤٥هـ) على جانب المعنى وأولويته على اللفظ، وأن مما تقرر في علم العربية "أن الجواب يأتي على حسب السؤال مطابقاً له في اللفظ، ومراعى فيه المعنى لا اللفظ"^(٣)، فيكون تأويل المطابقة اللفظية أيضاً حسب ما يقتضيه المعنى.

(١) الصبان، محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني، تحقيق: إبراهيم شمس

الدين، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٧م، ٣١٤/١.

(٢) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ٢٣٣/١٧.

(٣) أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود

وآخرين، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠١م، ١١٢/٣.

٣ - المطابقة التداولية:

وهي المطابقة التي تعنى بطرفي الخطاب ومواقفهما، وما يكتنف العملية التخاطبية من مقاصد وأغراض تبليغية، واستلزمات سياقية، إضافة إلى الجوانب الإدراكية والمقامية، يقول الطيبي (ت ٧٤٣هـ) مؤكِّدًا على تكييف المطابقة تبعًا لموقف المجيب من السائل مثلًا: "مدار المطابقة بين السؤال والجواب على موافقة السائل المجيب ومخالفته"^(١)، ومن هنا فرَّق في معرض المطابقة بين جواب المقرَّ وجواب الجاحد.

وفي حوار موسى ﷺ مع الله أجاب موسى عن السؤال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]، ويرى المفسرون أن حق المطابقة أن يقول: "عصا" دون زيادة، لكنه "زاد على ذلك مخافة أن يؤمر بطرحها كما أمر بخلع النعلين"^(٢)، وفي هذا التعليل التفاتة إلى الناحية التداولية الإدراكية التي زاد بموجبها موسى عما يقتضيه الجواب، فتوقَّعه لما يمكن أن تأتي عليه الأوامر الإلهية وجَّه الجواب وعدل به عن المطابقة.

وقرَّ الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) شرط المطابقة بالفائدة وحاجة السائل، فثمة سؤال جدل وهذا حقه أن يطابقه جوابه، وسؤال تعليمي وهذا

(١) الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: عمر حسن القيام، ط ١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم: دبي، ٢٠١٣م، ٩/ ١٠٣.
(٢) الكرمانى، محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق: شمران العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية: جدة، مؤسسة علوم القرآن: بيروت، د.ت، ٢/ ٧١٤.

لا تشترط فيه المطابقة، بل يبيّن الجيب جوابه بحسب تقديره لحاجة السائل من الإيضاح والشرح، وما تقتضيه الفائدة^(١).

ويعدّ العيني (ت ٨٥٥هـ) كذلك ممن اهتم بالجوانب التداولية في معالجته لمسألة المطابقة، فهو يرى أن الأصل هو اشتراط مطابقة الجواب للسؤال، ولكن ثمة مواضع قد يعدل فيها عن هذا الأصل إلى غيره "وهو الأهم"^(٢)، والأهم هنا مداره الفائدة أو ما يسمى في تداوليات القصد بـ (القصد الإخباري) أو الإعلامي الذي يُعرّف بأنه: "ما يقصد إليه القائل من حملٍ لمخاطبه على معرفة معلومة معينة"^(٣)، وفي تلك المواضع يطرح العيني سؤالاً عن سبب العدول ثم يجيب عنه، وقد يذكر علة العدول على نحو مباشر، كما سيأتي تفصيل ذلك باستفاضة في مباحث الدراسة.

وقد تناول البحث العدولَ المشار إليه آنفاً في ضوء (مبدأ التعاون الحوارية)، وهو مبدأ إدراكي افتراضي تنطوي عليه أذهان المتحاورين الذين يسعون إلى التعاون فيما بينهم من أجل الفهم والإفهام، وقد أسس له جرايس (Grice) وفرعه إلى

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد بسيوني، ط ١، كلية الآداب جامعة طنطا، ١٩٩٩م، ٤٤٤/١.

(٢) العيني، بدر الدين أبو محمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد الله محمود عمر، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠١م، ٢٣١/٩.

(٣) موشلار، جاك، وروبول، آن، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس وآخرين، ط ١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٠٦.

مبادئ ثانوية تستلزم من المتحاورين الامتثال لها^(١): مبدأ الكم، ومبدأ العلاقة (الصلة أو المناسبة)، ومبدأ الكيف (النوع)، ومبدأ الأسلوب (الجهة).

ولما كان الحوار بين أطراف الخطاب قائماً على احترام هذا المبدأ الحواري فإنه عند تتبع المواضيع التي عُدل فيها عن مطابقة الجواب للسؤال - من وجهة نظر العيني - في النصوص الحديثة يتبين أن العدول لديه ناتج عن خرق مبادئ الحوار التعاونية نفسها لأغراض تواصلية تبليغية حجاجية يتوخاها المجيب، ومن أبرز مظاهر العدول عن مطابقة الجواب للسؤال التي حظيت بعناية العيني في عمدة القاري: العدول الكمي، والعدول عن مبدأ الصلة (المناسبة)، وفيما يأتي تفصيل هذه المباحث.

(١) ينظر: المرجع نفسه، ص ٥٥. ويول، جورج، التداولية، ترجمة: قصي العتاي، ط ١، الدار العربية للعلوم ناشرون: بيروت، ٢٠١٠م، ص ٦٦.

المبحث الأول: العدول الكمي

يقتضي المبدأ التعاوني عند جرايس (Grice) مراعاة المتحاورين لكمية المعلومات المطلوب توفيرها أثناء المحادثة وهو ما يسمى (مبدأ الكم) (Quantity) ومفاده: "اجعل مساهمتك إخبارية بقدر ما يتطلب الأمر... لا تجعل مساهمتك إخبارية بقدر يفوق المطلوب"^(١)، بيد أن العيني يرى أن المجيب قد يعدل في جوابه عن المقدار المطلوب من المعلومات بالزيادة أو النقص حسب ما تقتضيه المقاصد، ففي الحديث: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون"^(٢)، محور السؤال هو كيفية الترك (كيف تركتم عبادي؟)، والجواب عنه جاء موضِّحًا تلك الكيفية غير أنه ثمة زيادة وهي قولهم (وأتيناهم...)، فالإتيان لم يكن مضمولًا في السؤال، ويعلل العيني هذه الزيادة في الجواب بأن غرض الملائكة إظهار فضيلة أولئك المؤمنين، والحرص على ذكر ما يوجب المغفرة لهم؛ إذ تلك وظيفتهم التي أخبر الله عنها في التنزيل^(٣) (أي استغفارهم للذين آمنوا)، فالعيني يشير هنا إلى الوظيفة التداولية للزيادة المستلزمة لطلب المغفرة لهم، والواقع أن ذكر ما يوجب المغفرة تحقق في الجواب (تركناهم

(١) يول، التداولية، ص ٦٨.

(٢) العيني، عمدة القاري، ح ٥٥٥/٣٢، ج ٥/٦٤.

(٣) المرجع نفسه، ج ٥/٦٨.

وهم يصلون)، لكن الزيادة في الجواب عززت هذا المقصود، فهي بمثابة تدعيم حجاجي للمقصود غير المباشر (طلب المغفرة لهم وادعاء استحقاقهم لها). وفي قوله ﷺ: "إني مما أخاف عليكم من بعدي مما يُفْتَحُ عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟... فقال: إنه لا يأتي الخير بالشر، وإنّ مما يُبْتِئُ الربيعُ يقتل حَبَطًا أو يَلْمُ إلا أكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثَلطت وبالت ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحبُ المسلم ما أعطى منه المسكين... وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع..."^(١)، يرى العيني أن جوابه ﷺ المطابق للسؤال لتحقق في قوله: (لا يأتي الخير بالشر)، لكن ثمة عدول بالزيادة التي بيّنت أن الخير "قد يكون سببًا له (أي للشر) ومؤديًا إليه كما يأتي في التمثيل"^(٢)، ويُفهم من كلام العيني أن الجواب كان مشككًا مما استلزم العدول بالزيادة لتوضيح ما أشكل؛ من حيث إنه إذا ثبت أن الخير لا يأتي بالشر فكيف تكون زهرة الدنيا التي هي نعمة (خير) من الله وبالألّا عليهم؟ فالصحابي السائل احتج بمبدأ عام استقر في أذهان الناس وهو أن الخير لا يأتي بالشر، فتلك مسلمة يصعب دحضها، وهي ما يسمى في الأدبيات الحجاجية بـ(الموضع) الذي يعرفه بيرلمان (Perelman) بأنه مجموعة من المبادئ

(١) العيني، عمدة القاري، ح ٦٧/١٤٦٥، ج ٩/٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ٩/٥٦.

والأفكار التي يتفق عليها أفراد الأمة الواحدة^(١)، وهو ما فطن إليه العيني وسماه (الأشياء المجملة) حين نبّه على أن مما يستفاد من هذا الحديث النبوي: "جواز عرض التلميذ على العالم الأشياء المجملة"^(٢).

ويُضَمِّر هذا الموضوع حجة تندرج ضمن الحجج شبه المنطقية وهي الحجة التي أطلق عليها بيرلمان (Perelman) حجة (التعارض أو التنافر) التي تكون قابلة للتأويل بحسب المقام "فحينما يؤكد شخص ما في نفس الآن قضية ونفيها، فإننا نفكر أنه لا يريد أن يقول شيئاً محالاً، ونحن هنا نتساءل كيف ينبغي تأويل ما يقوله لتفادي عدم الانسجام"^(٣)، وهذا يعني أنها حجة لا تُساق بالضرورة في مقامات الخصومة، إذ يمكن أن يدلي بها السامع في مواقف الرضا والودّ مستجلياً موطن الإشكال، ومحتواها الإشكالي يقدر بطبيعته الأسئلة، ومن هنا ساقها الصحابي (السائل) في صيغة سؤالٍ تادباً، فتلك المسلمة (الخير لا يأتي بالشر) لا تنسجم مع ما قرره النبي ﷺ بدءاً: (إني مما أخاف عليكم...)، ومن هنا زاد ﷺ في الجواب ما يستجلي موضع التعارض، وتمثلت هذه الزيادة فيما سماه العيني (التمثيل)، وقد توصل العيني إلى المعنى المستلزم من تلك الزيادة وهو أن: "الذي خفت عليكم تضييعكم نعم الله، وصرفكم إياها في غير ما أمركم

(١) ينظر: بيرلمان، شاييم، وتيتيكا لوسي أولبرخت، المصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة،

ترجمة: محمد الولي، ط ١، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ٢٠٢٣م، ص ١٨٣.

(٢) العيني، عمدة القاري، ٥٩/٩.

(٣) بيرلمان وتيتيكا، المصنف في الحجاج، ص ٣٢٣.

الله، ولا يتعلق ذلك بنفس النعمة ولا ينسب إليها^(١)، وذلك عبر سيورة استدلالية تأويلية لمضمون التمثيل، وإحالة العيني إلى التمثيل في استنتاج المعنى المقصود يقوم على افتراض مناسبة هذا التمثيل وعلاقته بموضوع الحوار الذي سبقه، فثمة آكل من الخير مفرط وهو ما يؤول به إلى الهلاك (الشر)، وثمة مقتصد ناج مؤد لحق الله، فالخير لا يأتي بالشر إلا من قبل النفس البشرية في سلوكها وكيفية تعاطيها لهذا الخير، ومن هنا تنشأ العلاقة السببية غير المباشرة التي لم يفتن إليها السائل في البدء، وهي علاقة من شأنها أن تخلق انسجاماً بين مبدأ (الخير لا يأتي بالشر) وما قرره النبي ﷺ من دوافع الخوف على أمته مما يمكن أن يؤول إليه الخير.

مما سبق يتبين أن المطابقة الكمية في الجواب تسمي قصوراً تبليغياً في الخطاب حين تصادق على حجة التعارض المبطنة في سؤال المعترض، وتثير إشكالاً يفترض أسئلة حجاجية أخرى تحتاج بدورها إلى إجابة، ويعطل الفهم الذي هو غاية القصدية التواصلية، فيلزم حينئذ أن يعدل الحبيب إلى الزيادة التي تستوضح مواطن الغموض، وتوجه المتلقي إلى التضمينات الحوارية المقصودة، وتتوخى مسالك الإقناع، ففي الحديث النبوي السابق جاءت تلك الزيادة متوسلة بتقنية حجاجية هي التمثيل (Analogie)^(٢)، التي أشار العيني إلى أن من وظائفها الحجاجية الإدراكية :

(١) العيني، عمدة القاري، ٥٧ / ٩.

(٢) يترجم عبد الله صولة هذا المصطلح بـ (التمثيل)، ويترجمه محمد الولي (مترجم كتاب

"المصنف في الحجاج" لبيلمان) بـ (التناسب).

- "التقييد وجعل المعقول كالمحسوس"^(١)، فالمعقول هو المدرك الذهني (الخير لا يأتي بالشر لكنه قد يؤدي إليه)، وهذه العلاقة السببية الذهنية قد يصعب فهمها، ومن هنا تأتي الوظيفة التداولية الإدراكية الثانية للتمثيل:

- تسهيل الفهم^(٢)، ذلك أن المعنى المعقول الصرف "لا يبرزه عن مكنونه إلا تصويره بالمحسوس المشاهد"^(٣)، ولا سيما في معرض السؤال والجواب؛ إذ يقوم التمثيل فيه بوظيفة تفسيرية شارحة، فالسائل لا يسأل إلا لطلب الفهم، ومن شأن التمثيل بالمحسوس المشاهد المتفق عليه أن يخرج المعنى المجرد المقصود من مكنونه ليتجلى ناصعًا إلى الأفهام.

وحجة التمثيل أدرجها بيرلمان (Perelman) ضمن الحجج التي تؤسس بنية الواقع، وعدّها أداة برهنة نسعى بها إلى التأثير مؤكّدًا أن دورها الحجاجي لا تظهر قيمته إلا إذا فحصنا التمثيل "باعتباره تشابه بنيات، حيث تكون صيغته الأعم هي: أن (أ) هو بالنسبة إلى (ب) ما هو (ج) بالنسبة إلى (د)... فهو بدل أن يكون علاقة تشابه فهو تشابه العلاقة"^(٤)، وقد أوضح العيني أطراف هذه العلاقة على نحو دقيق في الحديث النبوي سالف الذكر، فعلاقة

(١) العيني، عمدة القاري، ٥/ ٢٣.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ٢٢/ ١٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ٢٠/ ٥٣.

(٤) بيرلمان وتيتيكا، المصنف في الحجاج، ص ٥٤٩.

زهرة الدنيا بالمؤمنين كعلاقة ما ينبته الربيع بالماشية، وعلى الرغم من أن التمثيل النموذجي ينطوي عادة على أربعة حدود، وقد تحتزل في ثلاثة أحدها مكرر كما أشار بيرلمان (Perelman) ^(١)، فإن العيني قد فتق ثمانية حدود مؤكداً على الضمني الذي يمكن أن يفهم من التمثيل دون التصريح به:

- آكل مستلذ مفرط لا يقلع حتى يهلك ← مثال الكافر
- آكل مسرف ولكنه يتوخى دفع المضرة ← مثال المؤمن الظالم لنفسه
- آكل يأكل ما يسد جوعه غير مفرط ولا مسرف ← مثال المقتصد
- آكل يأكل ما يسد به رمقه ← مثال الزاهد في الدنيا

والأخير هو الذي "يفهم من الحديث وإن لم يصرح به" ^(٢)، وهو ما يدل على الحمولة الحجاجية الغنية التي يمكن أن ينطوي عليها التمثيل في معرض الجواب الشارح الذي يسعى إلى رفع الإشكال وخلق الانسجام بين مضامين الحوار، فهو لا يقتصر بالضرورة على الحدود الأربعة النموذجية التي أشار إليها بيرلمان (Perelman)، فالتمثيل النبوي السالف يحتشد بالصور التي يمكن أن تتعدد وتتنامي بما يخدم الغرض التمثيلي، وهو تمثيل (مشاهد) أي مستمد من بيئة العرب وما ألفوه من سلوك الماشية تجاه ما ينبته الربيع.

وقد يُلجأ إلى العدول الكمي في الجواب حين تكون المطابقة الكمية - من وجهة نظر العيني - قاصرة عن التبليغ ولاسيما في مجال الفتاوى الدينية التي تقتضي الدقة في إطلاق الحكم الشرعي، وهو ما يلحظ في الحديث: "سألنا

(١) ينظر: بيرلمان وتيتيكا، المصنف في الحجاج، ص ٥٥٣.

(٢) العيني، عمدة القاري، ٥٩ / ٩.

عمر... عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين فطاف بين الصفا والمروة سبعا^(١)، فهنا يعترض العيني على كلام الكرماني في تفنيده لوجه مطابقة السؤال للجواب بأن معناه: (لا يحل له)؛ "لأن رسول الله ﷺ واجب المتابعة، وهو لم يتحلل من عمرته حتى سعى"^(٢)، ويرى أنه لا حاجة إلى هذا التقدير؛ "لأن هذا جواب مطابق للسؤال مع زيادة، أما الجواب فهو قوله: (فطاف بين الصفا والمروة سبعا)، وأما الزيادة فهو قوله: (فطاف بالبيت سبعا) و(صلى خلف المقام ركعتين)، وفائدة الزيادة هي أن السؤال عن المعتمر إذا لم يسع، والجواب أن العمرة هي الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، فلا يجوز له قربان امرأته حتى يأتي بالطواف والسعي"^(٣)، والواقع أن الجواب المطابق المفترض هو: (لا يأتي امرأته)، من حيث إن جملة السؤال هي: (أيأتي امرأته؟)، ومن ثم فإن ادعاء العيني هنا - أن الملفوظ (فطاف بين الصفا والمروة سبعا) يمثل الجواب المطابق وما عداه زيادة - غير وارد، فمدار سؤال السائل ليس عن ثبوت الطواف بين الصفا والمروة سبعا، وحقيقة الأمر أن العيني لم يزد على أن استثمر العدول الكمي في جواب عمر ﷺ استثمارة استدلالية لاستنباط الجواب المطابق غير المصرح به وهو (لا يجوز له قربان امرأته)، وهو عين ما فعله الكرماني في تقديره للجواب المطابق بأنه (لا يحل له)، فكلاهما قدر جوابا

(١) العيني، عمدة القاري، ح ١٢٣١ / ١٦٤٥، ج ٩ / ٤١٥.

(٢) المرجع نفسه، ٩ / ٤١٥.

(٣) المرجع نفسه، ٩ / ٤١٥.

مطابقاً بطريق الاستلزام الحواري المنبثق عن خرق قاعدة الكم، غير أن العيني ينقل عن الكرمانى - من حيث ينتقده- لفظة ثابتة تتمثل في النكتة الحجاجية التي أشار إليها في تعليقه للجواب المقدر المستلزم بأن (رسول الله ﷺ واجب المتابعة)، فلما ثبت سعيه ثبت أن المسؤول عنه (إتيان المرأة) لا يجوز حتى يتحقق السعي، وكان بوسع عمر ﷺ أن يفتي بالجواب المطابق المباشر: (لا يأتي امرأته حتى يسعى) من حيث إن المفتي الفقيه يمتلك من مقومات العلم الديني ما يحول له الإجابة المباشرة المستندة ضمناً إلى تعاليم الشريعة، غير أن العدول الكمي بالزيادة التفصيلية التي تمثلت في سرد عمر ﷺ للسنن الفعلية النبوية التي شاهدها في أدائه ﷺ للعمرة يمثل حجاجاً بالسلطة، وهو ما أشار إليه الكرمانى في عبارته التي نقلها عنه العيني (لأن رسول الله واجب المتابعة...)، وحنة السلطة هي "التي تستعمل أفعال أو أحكام شخص أو مجموعة من الأشخاص باعتبارها وسيلة برهنة لمصلحة دعوى ما"^(١)، ولا أعلى من سلطته ﷺ على المستوى البشري في تعليم المسلمين مناسك دينهم ولا سيما في تلك الحقبة، "فبقدر ما تكون السلطة مهمة يكون قولها غير قابل للنقاش"^(٢)، فكيف بسلطة نبي كان بين ظهرانيهم وشهدوا أفعاله وسمعوا أقواله! ومن هنا تظهر وجهة تعليق الكرمانى في استدلاله على الجواب المطابق المستلزم، على حين تكلف العيني جواباً مطابقاً مباشراً ثم ضم إليه الزيادة الكمية ليقدر من مجموعهما النتيجة ذاتها التي استنكرها على الكرمانى، والفارق يكمن في أن

(١) بيرلمان وتينكا، المصنف في الحجاج، ص ٤٦٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦٧.

الكرماني التقط بؤرة السؤال ومحوره في توجيه المطابقة التي هي عنده مستلزمة مستدلّ عليها، وغفل عنها العيني فاصطنع مطابقة غير متوجهة.

وقد يلجأ المجيب في سياق الحوار التساؤلي إلى الزيادة الكمية في الجواب دون أن ينبثق عن ذلك استلزمات حوارية، وإنما هو لأغراض حجاجية ومقاصد مباشرة يفهمها المخاطب دون الحاجة إلى المرور بتأويلات استدلالية، مما يعني أن المخالفة الكمية في الجواب قد تكون من ضروريات الهدف التواصلية للمجيب، وقد أشار العيني إلى هذا النوع من العدول الكمي مبيّنًا دلالاته اللسانية الحجاجية، ومنه الحديث: "...أنّ رجالاً أتوا سهل بن سعد الساعدي وقد امترّوا في المنبر ممّ عوده؟ فسألوه عن ذلك، فقال: والله لأعرف مما هو، ولقد رأيته أول يوم وضع، وأول يوم جلس عليه رسول الله ﷺ، أرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة... مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعودًا أجلس عليهن إذا كلمت الناس فأمرته فعملها من طَرْفاء الغابة... ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها...^(١)، ثم أكمل المجيب حديثه عن مشاهدته اتخاذ النبي ﷺ ذلك المنبر وصلاته عليه، وكيفية صلاته من تكبيره وركوعه ثم نزوله القهقري وسجوده في أصل المنبر وما حدث به الناس بعد فراغه، إلى آخر ما ليس له تعلق مباشر بالسؤال.

وهنا يشير العيني إلى أن المجيب افتتح حديثه بـ "زيادة على السؤال"^(٢)، وإنما كانت زيادة (عدولاً عن المطابقة) لأنها لا تجيب عن السؤال (ممّ عوده؟)،

(١) العيني، عمدة القاري، ح ٤٠/٩١٧، ج ٦/٣٠٩.

(٢) العيني، عمدة القاري، ج ٦/٣٠٩.

وتتضمن تلك الزيادة بدورها عدولاً تركيبياً يتجلى في القسم والمؤكّد (إنّ) ولام التوكيد في قوله (والله لأعرف...) بقصد "التأكيد فيما قاله للسامع"^(١)، ثم اللام المؤكدة ولفظة (قد) في (ولقد رأيته...) لقصد "الإعلام بقوة معرفته بما سألوه"^(٢)، وعلى الرغم من أن تلك الزيادات في المضامين ليست جزءاً من الجواب المطابق المطلوب، فإن عبارات العيني السابقة تشير إلى أنها تصب في صالح الجواب، وتعضد تصديقه، وتوطئ للإقناع به، وهذا التعضيد لا يكون عادة إلا في الخبر الإنكاري المبالغ في إنكاره، والسائلون لم يكونوا منكرين، غير أن الموقف الذي انبثق منه السؤال كان موقف مرية وشك، فالسائل ومن معه (امتروا) في عود المنبر؛ من أي الأعواد هو؟ فقد كانوا بمثابة خصوم يريدون من يفصل في قضيتهم المختلف فيها، وموضع خلافهم هو (معرفة) جنس العود، ومن هنا حرص المجيب في البدء على أن يثبت ويخبر عن امتلاكه لتلك (المعرفة) المفقودة لديهم، معزّزا إياها بحشد عددٍ من المؤكّدات اللفظية التي من شأنها أن تقوي الفعل الإنجازي الخبري (المعرفة)، وهو ما عبر عنه العيني بقوله (الإعلام بقوة معرفته)، ليقطع المجيب بذلك كل محاولة محتملة للإنكار، ويقضي منذ الوهلة الأولى على الجدل الدائر بينهم، ويستجلب انتباههم لما سيأتي من تفصيل للجواب الذي باتت معرفته به من منظور السامعين يقينية غير قابلة للنقاش، فعبارة العيني (الإعلام بقوة معرفته) هي عبارة واصفة للحمولة الحجاجية التي اضطلعت بها تلك المقدمات الاستهلالية التي تتبين في الآتي:

(١) المرجع نفسه، ٦ / ٣٠٩.

(٢) المرجع نفسه، ٦ / ٣٠٩.

- الرؤية البصرية للأحداث المرئية (ولقد رأيته...)، فهو شاهد حاضر يقص الأحداث ويبرهن عليها من قلب الحدث الذي رآه وسمعه وعاصره بنفسه.

- التأريخ للحدث، فالرؤية كانت في (أول يوم) وضع فيه المنبر الذي هو محور السؤال، مما يقوي معرفته بجنس العود الذي صنع منه، ويسوغ له الإجابة التي لا منفذ للطعن والمرء فيها.

وبعد تلك المقدمة الاستهلاكية شرع المجيب يقص وقائع تحتضن الجواب المطابق المنتظر، مستعملاً تقنية حجاجية هي (الحجة الشارحة)، وهي ما التفت إليها العيني بجدق حين قال: "قوله (أرسل رسول الله ﷺ) إلى آخره شرّح جوابه لهم وبيأته فلذلك فصله عما قبله ولم يذكره بعطف"^(١)؛ لأن العطف مؤذن بإضافة محتوى آخر لما سبقه من كلام، في حين أن الخطاب (أرسل رسول الله...) خطاب شارح توضيحي لما قبله؛ ولذلك جاء غفلاً من أدوات الربط، وبعد ليونيل بلنجر (Lionel Bellenger) الشرح "حجة على تمهيد، ومعرفة، وثمره خبرة"^(٢)، ووسيلة الحجاج بالشرح التي استعملها المجيب هنا هي الوصف والسرد، والقوة الإقناعية للسرد تتمثل في "الإجبار الضمني على الإنصات منذ تلفظ المتحدث بالعناصر الأولى لشهادته... الحكيم هو وضع المستمع في حالة

(١) العيني، عمدة القاري، ٦ / ٣١٠.

(٢) بلنجر، ليونيل، عدة الأدوات الشارحة، ترجمة: قوتال فضيلة، ضمن كتاب: "الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ط ١، عالم الكتب الحديث: الأردن، ٢٠١٠م، ٥ / ١٢٢.

افتقاد لما سيأتي"^(١)، والسارد هنا هو الشاهد نفسه على الأحداث المروية، ومن شأن السرد وقص الوقائع أن يدفع السامعين إلى الانخراط الإدراكي في الأحداث والتفاعل معها، وإلى مشاركة المحيب في الاستحضار الذهني لها وكأنهم رأوها وعابنوها مثله.

وعلى الرغم من أن الجواب المطابق (من طرفاء الغابة) قد ورد في خضم الوصف السردي، فإن المحيب لم يكتف به، وإنما عدل بعده أيضاً بالزيادة الكمية التي وضحت بالتفصيل كيفية صلاته ﷺ يومئذٍ على المنبر، وهي زيادة ليس لها تعلق مباشر بالسؤال، بيد أنها حملت الكثير من الفوائد للأمة، وهو ما جعل العيني في ذكره لما يستفاد من الحديث يتجاهل موضوع السؤال (جنس عود المنبر) وإجابته المطابقة، ويركز على ما هو أهم مما ورد في الزيادة، وهو فائدة اتخاذ المنبر في ذاته وموضعه من المسجد، وكيفية الصلاة عليه.

ويشير العيني في مواضع أخرى إلى أن العدول الكمي بالزيادة في الجواب ربما يكون لأسباب تداولية مقامية إدراكية تتعلق بالسائل والمحيب، يسيرها الحوار، وتوجهها العمليات الذهنية المصاحبة لظروف إنتاج الخطاب، ففي الحديث الشريف: "أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"^(٢)، يرّد العيني على من زعم أن جواب

(١) المرجع نفسه، ٥ / ١٢٤.

(٢) العيني، عمدة القاري، ح ٢ / ٢، ج ١ / ٧٢.

السؤال هنا غير مطابق؛ من حيث إن السؤال كان عن كيفية الوحي، والجواب جاء عن كيفية الحامل للوحي، ويرى أن الجواب (يأتي مثل صلصة الجرس) مطابق لسؤال السائل الذي سأل عن كيفية إتيان الوحي بدليل استعماله لفظة (كيف)، وبعد أن بين النبي ﷺ تلك الكيفية زاد على الجواب بيان كيفية حامل الوحي أيضاً، ف"غاية ما في الباب أن الجواب عن السؤال مع زيادة"^(١)، ثم يعلل العيني تلك الزيادة بقوله: "وإنما زاد على الجواب لأنه ربما فهم من السائل أنه يعود يسأل عن كيفية حامل الوحي أيضاً، فأجابه عن ذلك قبل أن يجوجه إلى السؤال"^(٢)، وهي التفاتة من العيني إلى أهمية الناحية الإدراكية لدى المجيب ودورها في توجيه الحوار واستباق الأسئلة، فالسيرورة الكمية للجواب ليست رهينة السؤال الخطابي المعطى وحسب، وإنما رهينة ما يتوقعه المجيب أيضاً ويفترضه من أسئلة أخرى قد ترد على لسان السائل ويقتضيها موضوع النقاش، مما يجعل من الزيادة الكمية في هذه الحال جزءاً من البنية الجوابية المنشودة من قبل السائل، بل هي الجواب المطابق للسؤال الذهني المفترض أو المتوقع، وتلك الافتراضات والتوقعات من قبل المجيب - حسب ما أشار العيني - تمر عبر سيرورة تأويلية تصف كيفية اشتغال الذهن أثناء الحوار التساؤلي الاستشكالي، وتتضح في الآتي:

- (فهم) المجيب لقصدية السائل (نواياه).

(١) المرجع نفسه، ج ١ / ٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ج ١ / ٨٤.

- ثم استنباطه أسئلة أخرى مفترضة، لكنها مشتقة من ذات السؤال المطروح، فتحليل العيني لتلك الافتراضات ألمح ضمناً إلى أن ذهن المجيب أثناء استكناحه لأفكار السائل يراعي مبدأ المناسبة (الصلة)؛ من حيث إن من يسأل عن كيفية الوحي قد يسأل عن حامله أيضاً، بل هما (الوحي الإلهي والواسطة) لا ينفصلان في الذهن.

- لجوء المجيب إلى العدول الكمي بالزيادة للإجابة عن الأسئلة المفترضة. إن ما أشار إليه العيني من أسئلة مفترضة في ذهن المجيب مستدلّاً عليها بالعدول الكمي في جواب المجيب يندرج ضمن ما يسمى في التداوليات الإدراكية بالوعي الانعكاسي، أي قدرة الذهن على استحضار أو توقع ما يمكن أن يفكر فيه الآخرون أثناء التواصل الحواري، وهو "ما يتيح لمستخدمي اللغة أن يتدعوا أقوالاً لتوجيهها إلى جماهير محددة، وأن يستبقوا التفسيرات، وأن يضعوا الفرضيات حول المعنى الذي يقصده المتكلم"^(١)، ومن هنا يمكن أن يكون العدول الكمي بالزيادة في الجواب إكمالاً لحوار ضمني ذهني في حقيقة الأمر لا خرقاً لمبدأ الكم، ومحاولةً من المجيب لغلق أسئلة السائل أو إشباع مطالبه المعرفية، فيستبقه بالجواب (قبل أن يحوجه إلى السؤال) كما عبر العيني، وفيه إشارة إلى أن مبدأ الكم - كغيره من مبادئ الحوار التعاونية - لا يمكن تقنيه سلفاً، فهو محكوم بسيرورة الحوار وما يفضي إليه من آثار سياقية وجهود

(١) فيرشويرين، جيف، دراسة استخدام اللغة، ضمن كتاب (دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات)، بول كوبلي، ترجمة: هبة شندب، ط ١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠١٦م، ص ١٨٠.

تأويلية تتكشف في خضم العملية التواصلية، وتوجه دفة الحوار إلى ما يفني بالاحتياجات التبليغية.

يلمح العيني بعد ذلك إلى النواحي الإدراكية والتقنيات الحجاجية المستعملة في كل من الجواب المطابق والجواب المعدول مقارنةً بينهما من تلك الجوانب، ففي الجواب المطابق اختير الزمن الماضي (... وقد وعيت عنه ما قال)، على حين اختير الزمن المضارع (فأعي ما أقول) في الجواب المعدول، ويوضح العيني الفرق بين الاستعمالين من خلال إستراتيجيتين تأويليتين للزمن ينطلق فيهما من الذهن إلى اللغة، تتضحان في الآتي:

- القراءة التأويلية الأولى يعمد فيها العيني إلى استثمار السمة الزمنية الاتجاهية للأحداث؛ ذلك أن الوعي في الكيفية الأولى للوحي وهي صلصلة الجرس "حصل قبل الفصم ولا يتصور بعده"^(١)؛ ولذلك استعمل الماضي، أي إن الترتيب الخطي الزمني للأحداث في التصور (الذهن) يقتضي أن يحصل الوعي (الفهم والاستيعاب) قبل حصول الفصم (انقطاع الوحي)، ولكن لما جرى ذكر الفصم في التعبير اللساني قبل ذكر الوعي "فيفصم عني وقد وعيت عنه..." وهو ما يخالف الترتيب الذهني للأحداث، فإنه لم يكن من المناسب استعمال صيغة المضارع (أعي)؛ لأن الماضي المكتمل (وقد وعيت) هو المناسب لخلق مسار اتجاهي تراجعي للزمن (الوعي / الفصم) للحفاظ على الترتيب الزمني المتصور، أما في الجواب المعدول (أي في الكيفية الثانية للوحي

(١) العيني، عمدة القاري، ١ / ٨٤.

وهي الكلام الذي يتكلم به الملك) فالوعي يحصل "حال المكاملة ولا يتصور قبلها"^(١)، فالترتيب الذهني للأحداث يقتضي أن يسبق كلامُ الملك وعيه ﷺ، وقد وردت الأحداث هنا مرتبة في التعبير اللساني (فيكلمني - فأعني) ولذلك لم يكن من الممكن استعمال الماضي المكتمل (وقد وعيت) كما استعمل في الجواب المطابق؛ لئلا يخلق قراءة زمنية تراجعية، فالعيني إذن يحيل في تأويله للبنية الزمنية إلى طريقة الذهن في تنظيم الأحداث وتصورها، ويعدها هي المتحكمة في طريقة اختيار المنجزات اللغوية، ويؤكد على الملاءمة الحاصلة بين البنية الزمنية التركيبية المنجزة المختارة والبنية التصويرية الزمنية للأحداث.

- وبضيف العيني تأويلاً آخر للاختيارات الزمنية يتصل من جهة بالملايسات المقامية والحالة الإدراكية للمجيب المقترنة بالحدث، وبالمؤشرات اللغوية الموجهة للزمن من جهة أخرى، ففي الكيفية الأولى من الوحي الواردة في الجواب المطابق يكون ﷺ بين حالين أشار إليهما العيني: حالة "التلبس بالصفات الملكية"^(٢) ثم "حالته الجبلية"^(٣) مما يحول بينه وبين الحفظ والاستيعاب الفوري المباشر، وفي الكيفية الثانية يكون "على حالته المعهودة"^(٤) أي جبلته البشرية التي تتيح له سماع

(١) المرجع نفسه، ١ / ٨٤.

(٢) العيني، عمدة القاري، ١ / ٨٤.

(٣) المرجع نفسه، ١ / ٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ١ / ٨٤.

الكلام صريحًا فيحفظه في الحال، فعبر عن الأولى بالماضي المقترن بـ(قد) لتقريبه من الحال؛ من حيث إنه في تلك الوضعية "يقرب من أن يحفظه، إذ يحتاج فيه إلى استنبات"^(١)، على حين أنه في الثانية "لما كان صريحًا يحفظه في الحال"^(٢) عبر بالمضارع الدال على الحال، فهنا يستحضر العيني سياقًا معرفيًا على قدر كبير من الأهمية وهو خصوصية الوضع الإدراكي للمجيب بوصفه متلقيًا نوعيًا يتلقى خطابًا نوعيًا على هيئة مخصوصة خارجة عن المؤلف، فضلاً عن أن مخاطبه لا يندرج ضمن الجنس البشري، ومن ثم فإن الكيفية التي يأتي بها هذا الخطاب (الوحي) وحامله تنعكس على الحالة الذهنية (الفهم والاستيعاب) لمتلقيه، مما يحمله على اختيار الخطاظة الزمنية التي تنسجم مع تمثيلاته الذهنية ومنظوره الذاتي للأحداث، ففي الحالة الأولى وهي حالة التلبس بالوحي (مجيء الوحي كصلصلة الجرس) عبر بالماضي المسبوق بـ(قد) لتقريب حدث (الحفظ) من الحال؛ فهذا التعبير الجهي هو الأمثل لقصدية المجيب، إذ به يتفادى التعبير عن موقف الوثوق من حدوث الحفظ في الحال، باعتبار هذه الكيفية مما يحتاج فيه إلى استنبات) كما عبر العيني، على حين أن الحالة الثانية وهو مجيء حامل الوحي على هيئة بشرية- وهي الحالة التي تسمح

(١) المرجع نفسه، ١ / ٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ١ / ٨٤.

بالتلقي المباشر - اختبرت لها خطاظة زمنية تعبر عن الحال على نحو صريح مباشر.

وهذا التأويل الإدراكي للزمن على النحو الذي شرحه العيني أثبتته العلوم اللغوية المعرفية المعاصرة، فإحساس المتكلم بالزمن هو حصيلة تجارب ناتجة عن "عمليات عصبية بيولوجية متأصلة في الإنسان، وتشمل قدرتنا على إدراك مرور الوقت، والقدرة على إدراك أحداث متوافتة... وعلى إدراك التتابع أو ترتيب الأحداث"^(١).

ولا يفوت العيني أن يشير أيضًا إلى النكتة الحجاجية الإدراكية من وراء ضرب المثل في الجواب المطابق: (...مثل صلصة الجرس)، فقد بيّن أنه ﷺ "كان معتنياً بالبلاغة"^(٢) مشيراً إلى الوظيفة الحجاجية الإقناعية للصورة البلاغية التي احتواها المثل، وتأثيرها في المتلقين بتقريب المعنى إلى أذهانهم، فقد كان من عادته ﷺ أن يصوغ لهم أمثلة "من عالم الشهادة ليعرفوا بما شاهدوه ما لم يشاهدوه"^(٣)، ولا سيما في أمر الوحي الذي "لا عهد لهم به"^(٤) ومن ثم فهم لا يملكون له أي تمثيلات ذهنية، فالتجربة الحسية التي تجلعلهم يتمثلون الصورة الذهنية السمعية للوحي في كفيته الأولى (الوضع الملكي) مفقودة بالنسبة إليهم؛

(١) إيفانز، فيفيان، اللغة والزمن مقارنة لغوية معرفية، ترجمة: محمد زياد كبة، ط ١، جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠١٨م، ص ١١٧ - ١١٨.

(٢) العيني، عمدة القاري، ١ / ٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ١ / ٨٥.

(٤) المرجع نفسه، ١ / ٨٥.

ولذلك ضرب لهم مثلاً "بالصوت المتدارك الذي يسمع ولا يفهم منه شيئاً... فإذا كشف عنه وجد القول المنزل بيّناً، فيُلقي في الروع واقعاً موقع المسموع"^(١)، فصلصلة الجرس صورة سمعية معهودة لهم، ومن شأنها أن تبين كيفية الوحي وتقرّبها إليهم، وتقنعهم بقدرة الوحي في تلك الهيئة على التبليغ والإفهام.

وجملة القول في نهج العيني بشأن العدول الكمي بالزيادة في الجواب أنه لا يرى في تلك الزيادة خرقاً لمبدأ المطابقة في النصوص الحديثية، وأن الزيادة تنجم عن قصد الفائدة، واستيفاء كل ما يتوقعه المجيب مما يحتاجه السائل ولم يصرح به في سؤاله، فقد يقتصد السائل في سؤاله تأدّباً أو حياءً رغم حاجته للأكثر، وربما تكون الزيادة من قبل المجيب لأسباب إدراكية كدفع التوهم المفترض من السائل، أو لتوضيح إشكال يثيره الجواب المطابق، أو لأغراض حجائية كتغيير محيطه المعرفي مما يفضي إلى تعديل سلوكه وموقفه.

وكما يأتي العدول الكمي عن مطابقة الجواب للسؤال بالزيادة يأتي بالنقصان أيضاً، بيد أنه قليل في النصوص الحديثية التي تهدف بطبيعتها إلى التعليم والتشريع والبيان، ويتجلى هذا النوع من العدول غالباً في مواطن (الصمت) والحذف، ومنه قول فاطمة (رضي الله عنها) لأنس رضي الله عنه حين دُفن النبي صلى الله عليه وآله: "يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وآله التراب؟"^(٢)، ولم يجبه أنس رضي الله عنه؛ ليس لأن المقام الذي انبثق فيه السؤال كان مغنياً عن الجواب وحسب، وإنما كما قال العيني "وسكت أنس رضي الله عنه عن الجواب لها رعاية

(١) المرجع نفسه، ١ / ٨٥.

(٢) العيني، عمدة القاري، ح ٤٤٥ / ٤٤٦٢، ج ١٨ / ٩٦.

وتأدياً^(١)، فالسكوت هنا من وجهة نظر العيني هو سلوك تواصلية سيميائية يعبر عن التأدب والاحترام، ويراعي قدر المخاطب وحالته النفسية، ذلك على الرغم من أن الجواب المطابق المفترض - كما سيأتي - لم يكن ليتعارض مع التأدب، بيد أن السائل لما كان سائلاً مخصوصاً رفيع القدر (من آل البيت)، ومن أشد الناس يومئذ حزنًا على وفاة النبي ﷺ، كان السكوت عن إجابته أدمى لإجلاله وخفض جناح الود والرحمة لحاله، بل إن التأدب معه هو من تمام التأدب مع النبي ﷺ حتى في مماته، وبذلك يدرج العيني سلوك الصمت في معرض السؤال في ذلك المقام المخصوص ضمن مبدأ التأدب، فقد اختار المحيب أن يحدد عن مبدأ التعاون الكمي - الذي يقتضي بأن يوفر القدر المطلوب المناسب من المعلومات - ليكون مؤدبًا، مع أن إحدى قواعد نظرية التأدب عند أحد أشهر منظريها (ليتش) (Leech) تقتضي من المتكلم "أن يتجنب الصمت وأن يواظب على الكلام... حتى يظل حبل التواصل بينه وبين السامع قائمًا"^(٢)، لكن العيني يعدّه في الخطاب الحديثي السابق شكلاً من أشكال التواصل القائم على التهذيب بالنظر إلى خصوصية المقام التخاطبي والمسافة القائمة بين السائل والمحيب، كما أن صمت التأدب في هذا المقام هو نتاج إستراتيجية ذهنية تأويلية من قبل المحيب قائمة على إدراكه لقصدية سؤال فاطمة، فالسؤال المطروح لا يبدو مبرراً في طرحه من حيث إنه ينتهك - في

(١) المرجع نفسه، ج ١٨ / ٩٦.

(٢) عبيد، حاتم، "نظرية التأدب في اللسانيات التداولية"، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون: الكويت، المجلد ٤٣، العدد ١، ٢٠١٤م، ص ١٢٦.

ظاهره- أو يعارض فريضة شرعية معهودة هي دفن الميت، ولكن لما كان السائل من أكثر الناس إيماناً واحتراماً للشعائر الدينية حاول العيني أن يستجلي الموضوع الذي قاد إلى ذلك التساؤل وصمت عنه السؤال: "كيف طابت أنفسكم على حثو التراب عليه مع شدة محبتكم له؟" (١)، فالحجب لا تطيب نفسه بحثو التراب على الحبيب، وهذا المطوي في السؤال يمثل حجاجاً بالعواطف، ينزع به السائل إلى استشارة مشاعر الحبيب ليشركه موقف الحسرة والجوى، مما أدرك معه الحبيب بأنه سؤال الحزن والفجيرة والذهول لا سؤال المستفهم الطالب للجواب، فما من محب له ﷺ طابت نفسه أن يحثو التراب عليه، غير أن دفن الميت فرض لا مناص منه، ومن ثم كان الصمت مؤذناً لفاطمة بفهم المخاطب لقصدية سؤالها وتأدبه أمام هذا القصد، ومنطويًا في الآن نفسه على الجواب المطابق المفترض الذي استنبطه العيني مما سماه (لسان الحال)، وما لسان الحال سوى الصمت نفسه: "ولكنه أجاب بلسان الحال: قلوبنا لم تطب بذلك" (٢)، وهو جواب يسلم إلى السؤال المبطن: فلم حثوتم عليه التراب؟ فتأتي الإجابة الاستدراكية بوصفها عدولاً كمياً أو (زيادة) بتعبير العيني: "ولكننا فُهرنا على فعله امتثالاً لأمره" (٣)، وهي أجوبة تبدو من قبيل تحصيل الحاصل بالنسبة للسائل والمخاطب معاً، إذ تمثل محيطاً معرفياً مشتركاً ومتفقاً عليه بين الطرفين، وهو ما جعل العيني يؤول الصمت هنا على أنه إعلان وِدِّ وتأدب، إذ التصريح بجواب

(١) العيني، عمدة القاري، ج ١٨ / ٩٦.

(٢) العيني، عمدة القاري، ج ١٨ / ٩٦.

(٣) المرجع نفسه ج ١٨ / ٩٦.

مطابق ومتفق عليه يـنـجـح بالسؤال عن أغراضه التبليغية المقصودة، ويعكس فهمًا ضحلًا لا يتسق وهول الموقف.

وإذا كانت قاعدة الكم في المبدأ التعاوني تقتضي أن تكون الإفادة بالقدر الذي يحتاجه المخاطب لا تتعداه، فإن الصمت هنا من وجهة نظر العيني بمحولته التأويلية الإدراكية (فهم المجيب لقصدية السائل)، ووظيفته التداولية المقامية (التأدب)، هو غاية ما كان يحتاجه السائل حينئذ، فضلًا عن محولته العاطفية المكثفة المشعرة بأن الموقف جلل، والحال أعظم من أن يفـي بشرحه الجواب، ومن هنا يقرر العيني في مواضع أخرى من صمت المجيب وسكوته عن الإجابة بأن "الجواب ليس لكل الكلام، بل السكوت جواب لبعض الكلام"^(١).

يتبين من تأويل العيني لمواضع الصمت في معرض الجواب أنه ينأى عن تلك النظرة المعيارية للصمت التي تفسره بالعجز عن الكلام أو بالرضا والقبول، ويحاول استنطاقه باعتباره معطى تداوليًا "يدخل في لحظة التخاطب بما هو نقيض الكلام ليوجه الدلالة بحسب سياق الحال"^(٢)، بل حتى في تلك المواضع

(١) العيني، عمدة القاري، ج ١٩ / ٢٥٢.

(٢) رحامي، يوسف، "الصمت معطى تداوليًا ونسقًا خفيًا في الخطاب"، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، العدد الثالث، ٢٠١٨م، ص ٢٩٠.

التي يأتي فيها الصمت جوابًا قائمًا مقام التصديق والتسليم لا يكون كذلك عنده إلا "عند القرائن"^(١).

ومن صور العدول الكمي عن مطابقة الجواب للسؤال بالنقصان: الحذف، ويُستدل عليه من السياق النصي والتداولي، ومنه ما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ ذكر له صومي فدخل علي... فقال: أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام؟ قال: قلت: يا رسول الله، قال: خمسًا؟ قلت: يا رسول الله؟ قال: سبعا؟ قلت: يا رسول الله، قال: تسعًا؟ قلت: يا رسول الله، قال: إحدى عشرة..."^(٢)، فالجواب المطابق للسؤال النبوي محذوف استدلال عليه العيني من خلال الآتي:

- توظيف مبدأ (المناسبة) التعاوني؛ إذ "كيف يقع لفظ (يا رسول الله) جوابًا؟"^(٣)، ولما لم يصلح أن يكون جوابًا قدره العيني بمحذوف: "تقديره: (لا يكفيني الثلاثة يا رسول الله)، وكذلك يقدر في البواقي"^(٤)، فحذف الجيب جملة الجواب بأسرها واكتفى بجملة النداء التي ربما أحاطت بها موجهاً سيميائية صوتية من قبيل النبر والتنغيم مما يعين على فهم المقصود.

(١) العيني، عمدة القاري، ج ٢٢ / ٢٤١.

(٢) العيني، عمدة القاري، ج ٨٧ / ١٩٨٠، ج ١١ / ١٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ج ١١ / ١٣٣.

(٤) المرجع نفسه، ج ١١ / ١٣٣.

- التأويل الإدراكي للإجابات والردود النبوية، فقد انبثقت تلك الإجابات من فهم الجواب المحذوف (لا يكفيني...)، فزيادة عدد أيام الصيام في كل إجابة نبوية دلت على أنه ﷺ قد فهم أن مقصود ابن عمرو ﷺ هو: (لا يكفيني...)، وقوبل الحذف في جواب ابن عمرو ﷺ: بالحذف في الخطاب النبوي: خمسًا... سبعمًا... تسعًا... وهي ملفوظات منصوبة على المفعولية، أي: "صم خمسة أيام من كل شهر، وكذلك التقدير في سبعمًا وتسعمًا"^(١)، فقد عمد كل من السائل والمجيب إلى حذف عناصر جمالية اعتمادًا على فهم كل منهما للآخر.

وفي خضم هذا الاختزال التركيبي السجالي حاول العيني ملء الفراغات النصية في الخطاب استنادًا إلى المعطيات اللسانية والتداولية الإدراكية التي أسهمت في فاعلية التواصل بين طرفي الخطاب، وهي تقديرات تومئ إلى الوظيفة الحجاجية التي اضطلع بها الحذف، فالجواب المحذوف (لا يكفيني) حجة تنطوي على نتيجة مضمرة تستهدف الإقناع بعلو همة المجيب وأنه يصبر على ما هو أكثر من ذلك، ويطبق فوق ما رخص له، وهو ما فهمه النبي ﷺ وأجاب عنه بزيادة عدد أيام الصيام إلى الحد الأقصى المقبول شرعًا، والزيادة تعني التسليم بالحجة المفهومة من الجواب المحذوف.

(١) المرجع نفسه، ج ١١ / ١٣٣.

المبحث الثاني: العدول عن المناسبة (الصلة)

يقتضي مبدأ المناسبة أو الصلة التعاوني (Relevance) أن يقول المتكلم ما هو مناسب و"وثيق الصلة بالموضوع"^(١)، وحين يخرق المتكلم هذا المبدأ فإن المخاطب استنادًا إلى مبدأ المناسبة يفترض أن ثمة قصدًا وغرضًا يسعى المتكلم إلى تبليغه على نحو غير مباشر، ويتوخى المخاطب عندئذٍ الوصول إلى ذلك القصد عبر سلسلة من التأويلات والاستدلالات، من حيث إن البنية اللغوية المعدولة عما تقتضيه الصلة تنطوي على مضمون ذهني غير مصرح به.

وقد تنبه العيني في مواضع عدة إلى أن الجواب في بعض النصوص الحديثية لم يكن مطابقًا لموضوع السؤال، أو يبدو في الظاهر غير مطابق في مواضع أخرى، وحاول استجلاء الأغراض التواصلية والملابسات السياقية التي من أجلها يعدل المجيب عن مطابقة جوابه للسؤال من جهة المناسبة (الصلة).

ومنه "سأل ميمون بن سيّاه أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة، وما يحرم دم العبد وماله؟ فقال: من شهد أن لا إله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم"^(٢)، فالسؤال في النص عن سبب التحريم، وجواب أنس رضي الله عنه لا يبدو مطابقًا له، ويعقب العيني على ذلك بأن المطابقة ظاهرة "لأنه لما ذكر الشهادة وما عطف عليها

(١) يول، التداولية، ص ٦٨.

(٢) العيني، عمدة القاري، ج ٤ / ١٨٨. ولم أجد في عمدة القاري رقمًا لهذا الحديث، لكنه ورد برقم ٣٩٣ في صحيح البخاري في كتاب الصلاة (باب فضل استقبال القبلة)، تحقيق: محمود محمد نصار، ط ٢، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٨٩.

عُلم أن الذي يفعل هذا هو المسلم، والمسلم يحرم دمه وماله إلا بحقه^(١)، وهي إشارة إلى أن مقصود الجواب إنما عرف بطريق الاستدلال، وأن الجيب ابتدر جوابه بذكر أمور تشكل محيطاً معرفياً مشتركاً بينه وبين المتلقي (السائل) الذي سيستدعيها من الذاكرة، فتحمله على استشفاف المقصد.

ومن هنا تظهر خصوصية الجواب في النصوص الحديثة، فإنه لما كان السائل يسأل عن أمر جلل، يمس أعظم الحقوق الإنسانية رعايةً وصوناً في الإسلام (الدم والمال)، وكان المسؤول يضطلع بعبء إجابة تأخذ على عاتقها الوفاء بكل متطلبات السؤال، لم يكن الجواب ذو الصلة المباشرة كافياً؛ إذ الدخول في الإسلام (بنطق الشهادتين) لا يكفي لأن يُعصم به الدم والمال، بل لا بد من ممارسات تشريعية يمارسها المسلم مجتمعةً، وواجبات يؤديها لتحقيق معنى الشهادة، ومن ثم التمتع بحصانة تحمي دمه وماله.

وفي تعقيب العيني السالف الذكر إيماء إلى البنية الاستدلالية الحجاجية التي ينطوي عليها جواب أنس رضي الله عنه ضمن ما يسمى في نظرية الحجاج بحجة (التعددية)، وهي حجة شبه منطقية تتيح المرور "من إثبات أن العلاقة الموجودة بين (أ) و(ب) من ناحية، و(ب) و(ج) من ناحية أخرى هي علاقة واحدة، إلى استنتاج أن العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و(ج)"^(٢)، ويمكن تبينها في الآتي:

(١) العيني، عمدة القاري، ج ٤ / ١٨٩.

(٢) صولة، عبدالله، في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، ط ١، مسكلياني للنشر والتوزيع:

تونس، ٢٠١١م، ص ٤٦.

- من سلك ذلك السلوك (الشهادة واستقبال قبلة المسلمين والصلاة وأكل ذبائح المسلمين) فهو مسلم.
- المسلم يحرم دمه وماله.
- من سلك ذلك السلوك فقد حرم دمه وماله.

وفي هذه الحجة تتعالق ثلاثة أطراف تعالفاً يفضي إلى النتيجة المقصودة التي تربط بين الطرف الأول والثالث، وهو ما أوضحه عود الضمير في خطاب أنس رضي الله عنه (له ما للمسلم)، مما يؤكد على أن تلك الأفعال الموصوفة - من وجهة نظر أنس رضي الله عنه - هي المحك في تحريم دم العبد وماله، وحُصت بالذكر لأنها مما " يميز المسلم من غيره" (١).

ويظهر الجواب على هذا النحو ذا صلة بموضوع السؤال وإن كان مفصلاً، وهذا التفصيل هو ما جعل العيني يصفه بأنه "الجواب وزيادة" (٢)، مما يشير إلى أن ما يبدو خرقاً لمبدأ الكم قد يكون مبرراً بمبدأ الصلة، فهي زيادة تتسق مع ما يفترض أن يقدمه الجواب من معلومات ملائمة ومناسبة لاستيفاء جوانب السؤال.

ومما سبق يتبين أن العيني يشير إلى مسألتين في جواب أنس رضي الله عنه:

- كون المطابقة (ظاهرة)، وظهورها يعني وضوحها، إذ لا تحتاج إلى بذل مجهود ذهني كبير لتأويلها، وهو ما يقوي مطابقة الجواب للسؤال من جهة الصلة، ويعد شرطاً من الشروط التي وضعتها نظرية الصلة أو

(١) العيني، عمدة القاري، ج ٤ / ١٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ج ٤ / ١٨٩.

المناسبة "الافتراض الذي يتطلب قدرًا أقل من جهد المعالجة هو الأكثر صلة"^(١).

- استدعاء جواب أنس رضي الله عنه معلومات سابقة يعرفها السائل، وإضافة معلومات جديدة إليها عُرفت بطريق الاستدلال: ليس المسلم من نطق بالشهادتين وحسب، بل من أدى تلك العبادات المخصصة، ومن أداها كان (له) من الحقوق " ما للمسلم " وهو ما يفهم منه الحصر، أي: "له ذلك لا لغيره"^(٢)، وعليه من الواجبات " ما على المسلم"، وقد لخص العيني تلك المسألة الاستدلالية بقوله: "فكأنه قال: إذا قالوها وحققوا معناها بموافقة الفعل لها فتكون محرمة"^(٣)، فقبل أن يصرح أنس رضي الله عنه بجرمة دم المسلم وماله بين حقيقة المسلم التي قد لا يفقه الكثيرون منها سوى القول (النطق بالشهادتين) دون العمل، فكان ذلك بمثابة تعديل للمحيط المعرفي عند السائل والمتلقي الكوني، وهو ما يحقق الشرط الثاني من شروط المناسبة (الصلة): "كلما زاد حجم التأثيرات السياقية ازدادت الصلة أو المناسبة"^(٤)، والتأثير

(١) سبيري، دان، وولسون، ديدري، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة:

هشام الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ٢٠١٦م، ص ٢٢٢.

(٢) العيني، عمدة القاري، ج ٤ / ١٨٩.

(٣) المرجع نفسه، ج ٤ / ١٨٨.

(٤) سبيري وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة، ص ٢١٢.

السياقي هو تعديل سياق ما وتحسينه، وهو ناتج "تفاعل حاسم بين المعلومات الجديدة والقديمة"^(١).

كما لاحظ العيني أن ثمة أجوبة لا تكون فيها المطابقة مباشرة من حيث صلتها بموضوع السؤال، لأنها في حقيقة الأمر تجيب عن الضمني المسكوت عنه، كما في الحديث: "...سمعتُ البراء رضي الله عنه وجاءه رجل فقال: يا أبا عُمارة، أتوليتَ يوم حُنين؟ فقال: أما أنا فأشهد على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يولِّ، ولكن عجل سرعان القوم فرشقتهم هوازن، وأبو سفيان بن الحارث آخذُ برأس بغلته البيضاء يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"^(٢)، فالرجل هنا يسأل البراء رضي الله عنه هل توليت أم لا؟ ولم يسأل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فجواب البراء رضي الله عنه "لا يطابق سؤال الرجل"^(٣)، ويحاول العيني أن يفسر الصلة من خلال افتراض إستراتيجية تأويلية متبادلة بين الجيب والسائل تتمثل في الآتي:

١- الجيب "فهم بقرينة الحال أنه سأل عن فرار الكل فيدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم"^(٤)، ويُفهم من هذا التعليل الذي ساقه العيني لتفسير الصلة جملة من المسائل:

(١) المرجع نفسه، ص ١٩٥.

(٢) العيني، عمدة القاري، ح ٣١٨ / ٤٣١٥، ج ١٧ / ٣٩٤.

(٣) المرجع نفسه، ج ١٧ / ٣٩٤.

(٤) المرجع نفسه، ج ١٧ / ٣٩٤.

أ - أن المجيب يسعى إلى استجلاء قصد السائل، ويبحث عن الضمني في ملفوظه (سؤاله)، ولما كان هذا الضمني هو بؤرة السؤال في حقيقة الأمر كان مدار الإجابة الصريحة المباشرة متجهًا إليه.

ب - قرينة الحال هي عنصر غير لساني، وهي جزء من المحيط المعرفي المشترك الذي يفترض السائل أنه عبارة عن مجموعة من الحقائق الظاهرة التي يقوم المجيب باستدعائها من ذاكرته: فحُنين معركة معروفة، قائدها هو النبي ﷺ، وجنودها هم الصحابة ﷺ، وقد فر حشد منهم وتولوا مدبرين، وثبت النبي ﷺ وجمع من الصحابة، وهذه الحقائق تُمكنه من افتراض أن السائل يسأل (عن فرار الكل)، ولما كان السؤال الضمني المشتق من السؤال الصريح هو سؤالاً (عن فرار الكل) - والفرار من أرض المعركة سلوك مخز غير محمود- جاء الجواب ليجعل الأولوية -في دفع التهمة- للقائد الذي لا يحسن به أن يفر ولو فر الجمع كله، فكيف حين يكون القائد هو نبي الأمة!

ب- يستحضر العيني - إضافة إلى القرائن المقامية - دليلاً نصياً لا ينتمي إلى البنية اللغوية للنص المؤول نفسه، ولكنه نص آخر يسانده ويؤازره بوصفه طريقاً آخر في الحديث، يصرح بالضمني ويؤكد المعنى المفهوم، ويؤيد من ثم مطابقة الجواب للسؤال الضمني، ويقوي صلته ومناسبته لموضوع الحوار، يقول: "ويؤيده ما في الطريق الذي يأتي عقبيه: (أوليتم

مع النبي ﷺ؟" (١)، وهو ضرب من التأويل التقابلي الذي ينتهجه المؤرِّول ويستحضر من خلاله النصوص المماثلة لتأييد استنطاقه للمعنى المضمّر في النص المؤرِّول، ومن شأن تلك النصوص "أن تلعب دور الشاهد والمساند في التخريج الدلالي، وفي إقناع المخاطبين بتماسك المعنى المفهوم" (٢).

٢- وفي مقابل الضمني من السؤال لم يهمل الجيب الجانب الصريح منه (أوليت؟)، بيد أنه ساق له جواباً ضمئياً، وترك للسائل مهمة الاستدلال عليه، وقد حاول العيني استجلاء المحتوى الضمني في بنية الجواب استناداً إلى مبدأ مطابقة الجواب للسؤال في المناسبة (الصلة)، ويمكن تتبع المسار الاستدلالي التأويلي الذي انتهجه العيني لاستظهار الضمني في الآتي:

أ - تأطير البنية اللغوية التي يتوارى خلفها الضمني، وتنطوي على جملة من المعطيات التي تفضي إلى النتيجة المطوية المقصودة، يقول العيني: "إخباره بقوله: (ولكن عجل سرعان القوم) إلى آخره يدل على أنه ثبت" (٣)، فالمعنى المستلزم المستدلّ عليه من هذا الملفوظ هو أن البراء ﷺ لم يفر من المعركة.

(١) المرجع نفسه، ج ١٧ / ٣٩٤. وهو يشير إلى طرف الحديث ٣١٩ / ٤٣١٦، ونصه: "حدثنا أبو الوليد... قيل للبراء وأنا أسمع: أوليتم مع النبي ﷺ يوم حنين؟"، عمدة القاري، ج ١٧ / ٣٩٤ ٣٩٥..

(٢) بازي، محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ط ١، منشورات الاختلاف: الجزائر، منشورات ضفاف: بيروت، ٢٠١٣م، ص ٢٣٧.

(٣) العيني، عمدة القاري، ج ١٧ / ٣٩٤.

ب - يعلل العيني سبب وصوله إلى هذه النتيجة التي تمثل الجواب الضمني فيقول: "لأن المؤلّي لا يقدر على إخبار ما شاهده البراء في هذه القضية على هذه الصورة"^(١)، وهو يشير بذلك إلى الحجج الشارحة التي قدمها البراء رضي الله عنه في أسلوب سردي يحوي وصفًا لأحداث بصرية: "عجل سرعان القوم/ رشقتهم هوازن/ آخذ برأس بغلته"، وأخرى سمعية: "يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، وتلك الأحداث لا يملك الفارّ من المعركة - كما أشار العيني - القدرة على وصفها وتفصيلها على هذا النحو، فهذا المسار الاستدلالي الذي اتبعه العيني أداته ما اختزنه الذهن المؤوّل من مفاهيم وتصورات تشكلت من التجربة البشرية الناشئة من تفاعل الإنسان مع محيطه، ومفاد ذلك التصور أن الهارب من أرض المعركة لا يستطيع الإمام بتلك التفاصيل التي تحتاج تركيزًا بصريًا وسمعيًا، فما قدمه البراء رضي الله عنه من معلومات استدعى في الذهن مفاهيم محددة ومنتقاة، وهو انتقاء "يتحدد بواسطة البحث عن الصلة أو المناسبة"^(٢) التي بدت مفقودة، ليصل إلى نتيجة يستلزمها الحوار: (البراء رضي الله عنه ثبت ولم يولّ)، وهي ذاتها الجواب الضمني عن السؤال الصريح. ولا عجب بعد ذلك من أن يصف العيني كلام البراء رضي الله عنه بأنه "جواب بديع، يبيّن فيه أولًا أن النبي صلّى الله عليه وآله لم يولّ أيضًا"، وهو وصف للقوة الحجاجية

(١) المرجع نفسه، ج ١٧ / ٣٩٤.

(٢) سبيريبر وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة، ص ٢٤٧.

التي نهضت بها البنية الجوابية، والتي يمكن تبين السيرورة الحجاجية فيها من خلال الآتي:

- استفتح البراء رضي الله عنه جوابه بالفعل الإنجازي الإيقاعي "أشهد"، وهي كلمة تضطلع بحمولة حجاجية تستمد قوتها من مقتضاها اللغوي؛ ذلك أن من يشهد فهو يدلي بشهادة، والشهادة هي "خبر قاطع"^(١)، كما تستمدها من مقتضاها التداولي الذي رفته الاستعمال، فهي كلمة ذات سلطة قضائية تشريعية دفاعية، وبمجرد النطق بها يتجشم صاحبها تبعات محتواها، ويحمل سامعها على الإذعان لما سيقع في حيزها (المشهود به).

- قوله (بيّن فيه أولاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يولّ) فيه إشارة إلى أن الأولوية في ترتيب الإجابات المطابقة كانت وفق الأهمية التي قدرها المجيب، فذكر حال قائد المعركة ودفع تهمته الفرار عنه يمثل أهمية عند المجيب تفوق أهمية الحديث والنفاح عن نفسه، فقدّم الإجابة عن الضمني لغاية حجاجية هي التبيير، فهو "تبيير اهتمام"^(٢) كما يسميه عبد الله صولة، يعبر فيه المجيب عن موقف، ويسعى إلى نقل بؤرة الاهتمام عند

(١) الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٩٠م، مادة (شهد)، ٢ / ٤٩٤.

(٢) صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط ٢، دار الفارابي: بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٤٤٥.

السائل أيضًا إلى ذلك المقدم، لتغيير محيطه المعرفي وتعديل تصوراتها بما يفضي إلى اقتناعه.

- ثم ساق من الحجج ما يثبت أهليته لتلك الشهادة من خلال قصّ أحداث رآها وسمعها، وليدفع المتلقي أيضًا إلى استنتاج الجواب الضمني بطريق الاستدلال، فيكون ألزم له بالحجة، ذلك أن المعنى الذي نستنتجه بأنفسنا نكون "أشدّ تسليماً به، وأكثر إزعاناً له من المعنى الذي يقدم لنا جاهزاً مباشرة في شكل دلالة تصريحية"^(١).

كما أن استعانة العيني بالنصوص المماثلة لتأكيد استنتاجاته للأقوال المضمرّة يكشف عن عنايته بالحجاج، ليس على مستوى الخطاب المؤوّل (المشروح) وحسب، بل على مستوى الخطاب التأويلي الشارح أيضًا. إن معالجة العيني للضماني في السؤال ينطلق من الكشف عن المراد (القصدية)، تارة من منظوره، وتارة من منظور المتحاورين أنفسهم، ذلك المفهوم الذي عوّل عليه في شتى تأويلاته لمواضع العدول عن مطابقة الجواب للسؤال في الصلة، وقد حظي هذا المفهوم بعناية التداولين الإدراكيين ولاسيما رواد نظرية الصلة؛ ذلك أن "التعرّف على القصد من وراء الإظهار ضروري للمعالجة الكفوءة للمعلومات، فمن يفشل في التعرف على القصد قد يفشل في ملاحظة معلومات ذات صلة"^(٢).

(١) المرجع نفسه، ص ٤٣٨.

(٢) سبيريبر وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة، ص ١٠٠، ١٠١.

ومما استند فيه العيني إلى فهم السامع لقصديّة السائل سعيًا إلى استجلاء مبدأ مطابقة الجواب للسؤال وملاءمته لموضوع الحوار تأويله للنص النبوي: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإنّ أحدنا يقاتل غضبًا ويقاثل حمية... فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل"^(١)، فهنا يعالج العيني مبدأ المناسبة من خلال نقاش حوارى افتراضى: "فإن قلت: السؤال عن ماهية القتال، والجواب ليس عنها بل عن المقاتل، قلتُ: فيه الجواب وزيادة"^(٢)، ذلك أن بنية السؤال الأساسية وإن كانت عن مفهوم القتال في سبيل الله فقد أعقبها ما يُفهم أن السائل في حقيقة الأمر يستفهم عن العلة والغاية التي تجعل من القتال قتالاً في سبيل الله، فجاء الجواب في معناه مطابقاً لموضوع السؤال وموجزًا للوجوه الواجب صرف تلك الغايات إليها؛ فإن الغضب والحمية بدورهما قد يكونان لله، وقد يكونان لغيره، وهو إيجاز التفت له العيني في استنباطه أحكام النص النبوي، وبين أن وظيفته التداولية (تجنّب اللبس)، فالجواب جاء مطابقاً جامعاً "لمعنى سؤاله لا بلفظه؛ من أجل أن الغضب والحمية قد يكون لله عز وجل، وقد يكون لغرض الدنيا، فأجابه ﷺ بالمعنى مختصراً؛ إذ لو ذهب يقسم وجوه الغضب لطلال ذلك ولخشى أن يلبس عليه"^(٣)، فبنية السؤال وموضوعه عند العيني لا تنفصل عن البنية الكلية للنص بقرائنه اللغوية والمقامية، على أنه قدم تأويلاً آخر مسانداً ومفسراً

(١) العيني، عمدة القاري، ح ٦٤ / ١٢٣، ج ٢ / ٢٩٦.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢ / ٢٩٧.

(٣) العيني، عمدة القاري، ج ٢ / ٢٩٨.

لمناسبة الجواب لموضوع السؤال ومطابقته له، وهو أن (القتال) في سؤال السائل هو بمعنى اسم الفاعل "بقرينة لفظ (فإن أحدنا)"^(١)، فلما كان المصدر (القتال) يدل على ساذج الحدث مجرداً من الذات، والجواب جاء عن الذات (من قاتل...)، أوّل العيني القتال بمعنى اسم الفاعل (المقاتل) الدال على الحدث والذات معاً، مستعيناً بمشير مقامي تداولي هو ضمير المتكلم في (أحدنا) الدال على الذات المتلفظة وعلى الجماعة المسلمة المقاتلة، فالمشيرات المقامية أو ما يسمى (المعِينات) تحيل بطبيعتها "على عناصر تقع خارج اللغة وتتم معاينتها ارتباطاً بالمقام التواصلية"^(٢)، فكأن السائل يسأل: أيّنا هو المقاتل في سبيل الله؟ أهو من يقاتل غضباً أو حمية...، ومن ثم تقوم القرائن اللفظية والمقامية في النص بتعديل ضمني لمحتوى السؤال، وتوضيح لأغراضه ومقاصده وموضوعه الحوارية، مما يرشد فهم الجيب ويعدل محيطه المعرفي ويوجهه إلى تقديم الإجابة الملائمة، وهذا التأويل الذي ساقه العيني يمثل انتقاء سياق مناسب يستند إلى مبدأ الصلة ومطابقة الجواب لموضوع السؤال.

ويعوّل العيني في تأويل غالب الأجوبة النبوية - التي لا يبدو فيها الجواب مطابقاً لموضوع الحوار - على فهمه ﷺ لقصدية السائل، إذ يمكن أن يكون ملفوظ السؤال لا يفصح عن المقصود المباشر، فيأتي الجواب مطابقاً للضمني غير المصرح به، كما في الحديث النبوي: "...فأتاه جبريل ﷺ فقال: ما

(١) المرجع نفسه، ج ٢/ ٢٩٧.

(٢) روبول، آن، وموشلار، جاك، تداولية الخطاب من تأويل الملفوظ إلى تأويل الذات،

ترجمة: حسن بوتكلالي، ط ١، كنوز المعرفة: عمان، ٢٠٢٠م، ص ٥٨.

الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث)"^(١)، وهنا يطرح العيني سؤالاً يستجلي وجه مطابقة الجواب للسؤال، ويسعى إلى الكشف عن جوانب الملاءمة بينهما: "إن السؤال عن ماهية الإيمان لأنه سأل بكلمة (ما)، ولا يُسأل بها إلا عن الماهية، وماهية الإيمان التصديق، والجواب غير مطابق"^(٢)، ثم يؤول الجواب النبوي غير المطابق في ضوء إدراكه ﷺ لقصدية السائل، وأنه عَلِمَ منه "أنه إنما سأل عن متعلقات الإيمان، إذ لو كان سؤاله عن حقيقته لكان جوابه (التصديق)"^(٣)، فالعدول عن الجواب المتوقع المطابق لظاهر السؤال يقود الذهن إلى سيورة تأويلية تراجعية تبحث عن المتواري في السؤال من خلال الاستلزامات السياقية التي يقود إليها فقدان المطابقة، والناشئة عن افتراض إسناد المجيب للسائل قصداً يتوخى إبلاغه، فالجواب يدلّ على الضمني ويستلزم أن يكون مقصود السؤال: ما هي متعلقات الإيمان؟ وقد بنى العيني تلك الاستلزامات من خلال الركون إلى ظروف إنتاج الخطاب النبوي وملابساته، ومن السلطة الروحية والدينية التي اصطبغ بها طرفا الخطاب، إذ إن السائل - كما أفصحت خاتمة الحديث النبوي - "كان غرضه التعليم"^(٤)، فطرفا الخطاب (ملك وني)، وثمة توافق قصدي بينهما يتوخى تبليغ الأمة، وتعليم السامعين أمور دينهم، فلم يكن الغرض السؤال عن ماهية الإيمان

(١) العيني، عمدة القاري، ج ١ / ٥٠، ج ١ / ٤٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ج ١ / ٤٥٤.

(٣) العيني، عمدة القاري، ج ١ / ٤٥٤.

(٤) المرجع نفسه، ج ١ / ٤٥٦.

لأن الإجابة عن الماهية لن تعلمهم شيئاً جديداً، وإنما الغرض بيان أركانه التي لا يتم الإيمان إلا بها، ومن ثم كانت خاتمة الخطاب النبوي: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) تمثل أهم العناصر الإظهارية في مبدأ المناسبة (الصلة)، فالملفوظ (يُعلم الناس) "جملة وقعت حالاً"^(١) تبين هيئة جبريل عليه السلام عند المجيء مما يعين أذهان السامعين على استحضار الصلة في الأجوبة السالفة، وبعدها بيئتهم الإدراكية التي كانت تظن جبريل عليه السلام -طيلة زمن المحاورة- كائناً بشرياً ومجهولاً في الآن نفسه، ومما عزز لفت انتباههم وتغيير محيطهم المعرفي أشارته عليه السلام إلى جبريل عليه السلام بقوله (هذا)، فمثل تلك العناصر الإشارية تدعونا "إلى إضافة معلومات بيئية إلى السياق"^(٢)، ولعل هذا ما دعا رواد نظرية الصلة إلى نفي أن يكون السياق معطى سابقاً جاهزاً، "وإنما يُبنى ملفوظاً إثر ملفوظ"^(٣) أثناء التبادل الحوارية.

ولم يفت العيني حين استقصى هذا العنصر (يُعلمهم) على المستوى النحوي أن يقرنه بالجانب التداولي الإدراكي الذي يقوي الصلة والآثار السياقية، ويحقق انسجام الخطاب، فإن جبريل عليه السلام "لم يكن معلماً وقت المجيء، فكيف يكون حالاً؟ قلت: هذه حال مقدرة"^(٤)، والحال المقدره "هي التي يكون

(١) المرجع نفسه، ج ١ / ٤٤٦.

(٢) سبيرير وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة، ص ٢٤٧.

(٣) روبول وموشلار، تداولية الخطاب، ص ٧١.

(٤) المرجع نفسه، ج ١ / ٤٤٦.

حصول مضمونها متأخرًا في الخارج عن حصول مضمون عاملها"^(١)، فالوصف النبوي كان باعتبار ما آلت إليه الوقائع، وتخريج العيني هو إشارة إلى ما استقر في إدراك السامعين حينئذٍ، فالترتيب الزمني للأحداث هو عملية ذهنية يقيمها الذهن تلقائيًا من سياق الأحداث، ويصنع منها انسجامًا في عملية فهم الخطاب وتأويله، واستنطاق جوانب الصلة والملاءمة فيه.

وفي مواضع أخرى قد يسوق المجيب جوابًا يفتقد الصلة بموضوع السؤال على الرغم من فهمه الكامل لقصدية السائل محاولًا إقصاء المحور الأساس للسؤال عمدًا، وساعيًا إلى صرف اهتمام السائل إلى موضوع آخر يراه أجدر بالتساؤل، كما في النص النبوي: "كان رجالٌ من الأعراب جُفأة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: (إنَّ يعيش هذا لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم) قال هشام: يعني موتهم"^(٢)، وقد أوَّل الصحابة ﷺ قوله (ساعتكم) بـ (موتكم) بطريق الشريعة؛ ذلك أن القيامة لا يعلمها إلا الله، وهنا نقل العيني تساؤل الكرمانبي: "فإن قلت: السؤال عن الكبرى والجواب عن الصغرى فلا مطابقة، قلت: هو من باب أسلوب الحكيم"^(٣)، وأسلوب الحكيم هو الذي عرّفه السكاكي (ت ٦٢٦هـ) بقوله:

-
- (١) الفاكهي، جمال الدين عبد الله بن أحمد، شرح الحدود النحوية، تحقيق: محمد الطيب الإبراهيم، ط ١، دار النفائس: بيروت، ١٩٩٦م، ص ١٦٧.
- (٢) العيني، عمدة القاري، ح ١٠٠ / ٦٥١١، ج ٢٣ / ١٤٦.
- (٣) المرجع نفسه، ج ٢٣ / ١٤٧.

"وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب"^(١)، وتلقي المخاطب بغير ما يترقب هو عدول عن مبدأ الصلة إذ لا يترقب المخاطب إلا ما له صلة بموضوع الحوار، وتدرج اللسانيات التداولية هذا الأسلوب ضمن مبدأ (التأدب) الذي "يظهر فيه المتكلم لباقة وقدرة على عدم مجابهة المخاطب بالرأي المخالف، وعلى تحبب التوتر الحاصل بينهما أثناء التفاعل... فيكون الحلّ في أن يصرف المتكلم مخاطبه بقدر من اللباقة عن ذلك الموضوع إلى موضوع آخر"^(٢)، فلم يكن من النبي ﷺ أن يجرهم على نحو مباشر عن السؤال في الغيبات التي لا يعلمها إلا الله لئلا يكون ذلك مدعاة لتغيرهم عن الإقدام على السؤال عامة، لكنه صرفهم بأسلوب يتحرى التهذيب واللباقة إلى ما ينفعهم، وقد شرح العيني تلك المنفعة بقوله: "معناه: دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فإنها لا يعلمها إلا الله عز وجل، وأسأله عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم... لأن معرفتكم إياه تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته"^(٣)، وهو يشير بذلك إلى المعنى الضمني الذي يمثل انطواء الجواب النبوي على فعل كلامي غير مباشر، قوته الإنجازية هي الأمر بترك السؤال عن وقت القيامة الكبرى، وتوجيه السائلين إلى ما يفترض بهم السؤال عنه، فخرق مبدأ الصلة في الجواب النبوي السالف أو ما سماه البلاغيون بأسلوب الحكيم اضطلع بوظيفة إنجازية حجاجية مدارها

(١) السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٣م، ص ٣٢٧.

(٢) عبيد، نظرية التأدب في اللسانيات التداولية، ص ١١٦.

(٣) العيني، عمدة القاري، ج ٢٣ / ١٤٧.

نقل بؤرة الاهتمام والعناية إلى مسألة أخرى ترى الحكمة النبوية أنها الأجدر بالسؤال.

وتظهر خصوصية الجواب النبوي بشأن موضوع الساعة في كونه تأديبياً تأديبياً في الآن نفسه، فهو يعلم السائلين حينها - ومن بعدهم السائل الكوني - أن الموضوع المسؤول عنه من مسائل الغيب العصية على مبدأ السؤال والجواب والمناورة، وفي كونه يقدم الجانب التأديبي في الخطاب على مبدأ التعاون الذي يقتضي مراعاة مبدأ الصلة والمناسبة، وكان هذا ديدنه ﷺ في كل مرة يُسأل فيها عن زمن الساعة، إذ يغلب مبدأ التأديب والتأديب على مبدأ الصلة وموضوع الحوار، ويعدل عن مطابقة الجواب للسؤال إلى ما فيه المصلحة والمنفعة للأمة، على أنه يتبين بشيء من التأمل أن هذه الأجوبة المعدولة عن مطابقة الصلة هي في واقع الأمر ضرب من التعاون لا خرق له، فحين لا يكون الجواب المطابق ممكناً كما هو الشأن في السؤال عن زمن القيامة، والمسؤول نبيّ معلّم يضطلع برسالة تعليمية تشريعية، فإن العدول في الجواب عن موضوع الحوار أدعى إلى التلطف والرفق من إظهار الامتناع أو توبيخ السائل وفصم عرى الودّ أو توجيه دفة الحوار إلى مسالك التنفير، وهذه القاعدة الحوارية تنبه لها العيني في موضع آخر سأل فيه أعرابيُّ النبيَّ ﷺ "متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث ... حتى إذا قضى حديثه قال: (أين أراه السائل عن الساعة؟) قال: ها أنا يا رسول الله، قال: (فإذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة)، قال: كيف

ضياعها؟ قال: (إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)^(١)، وهنا يشير العيني إلى مجموعة من المبادئ التعاونية التهذيبية المتساندة على النحو الآتي:

- انطواء الجواب النبوي على إستراتيجية تأديبية، يقول: "فيه الرفق بالمتعلم وإن جفا في سؤاله أو جهل؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يوبخه على سؤاله قبل إكمال حديثه"^(٢).

- عدول الجواب النبوي عن قاعدة المناسبة (الصلة) احتراماً لمبدأ التأدب، فإنه ﷺ لم يسق جواباً مطابقاً يركز على موضوع السؤال وهو زمن قيام الساعة، ولم يبين له أنها من الغيب الذي لا يحسن ولا ينبغي السؤال عنه، وإنما ألمح إلى زمنها بقرّنه بحدث تضييع الأمانة، الأمر الذي ربما شكل عدولاً في الآن نفسه لقاعدة الكم، وقد سوغ العيني هذا العدول بذكر مبدأ حوارى تبليغي إذ يقول: "فيه جواز اتساع العالم في الجواب أنه ينبغي منه إذا كان ذلك لمعنى أو مصلحة"^(٣)، وعلى الرغم من أن السائل لم يكتفِ بتلك الإلماحة وعاد وسأل: (كيف إضاعتها؟) فإن النبي ﷺ استمر على النهج نفسه في إجابته بطريق الاستلزام لا المطابقة المباشرة، وهو ما دفع بالعيني إلى طرح التساؤل الافتراضي الذي يشير فيه إلى خرق مبدأ مطابقة الجواب للسؤال في الصلة: "فإن قلت: السؤال إنما هو عن كيفية الإضاعة

(١) العيني، عمدة القاري، ح ١/ ٥٩، ج ٢/ ٦.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢/ ١١.

(٣) العيني، عمدة القاري، ج ٢/ ١١.

لقوله (كيف؟)، والجواب هو بالزمان لا بيان الكيفية... قلت: متضمن للجواب إذ يلزم منه بيان أن كفيته هي بالتوسد المذكور"^(١)، فالعيني يحيل إلى المتضمن (المضمرة) في الجواب، فالزمن الذي تقوم فيه الساعة مقترن بتلك الأمارات (توسيد أو تفويض أمور الدين إلى غير أهلها) مما يفضي إلى ضياع الأمانة، فيكون الجواب قد بين الكيفية بطريق الاستلزام.

يشير العيني فيما سبق إلى أن الإجابة النبوية حققت الأغراض التهذيبية والتبليغية معاً على الرغم من عدولها عن مبدأ المناسبة (الصلة)، ولعل هذا ما دعا طه عبد الرحمن إلى إجازته إدراج قواعد التعاون ضمن مبدأ التأدب، "فلما كانت قواعد التعاون كلها مردودة إلى المطالبة بوضوح المضامين المبلّغة... فلا يمكن استيفاء مقتضى الوضوح إلا إذا اقتصرنا على القيام بحاجة المخاطب من الفائدة، واجتنبنا أن نبلغه كل ما من شأنه أن يعارض إرادته أو يعوق رغائبه"^(٢)، كما أشار إلى أن هذه القواعد التأديبية التهذيبية التي تقررت في الممارسات التراثية (كما ورد عند العيني) تفتقر عن مبادئ التأدب التي نظر لها رواد نظرية التأدب الحديثة في أنها لا تقوم على مفهوم الخدمات والمصالح

(١) المرجع نفسه، ج ٢ / ١١.

(٢) عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط ٣، المركز الثقافي العربي: المغرب،

٢٠١٢م، ص ٢٤٢.

والتنازع في الحقوق وحسب، وإنما ترتقي إلى "مرتبة التخلق المخلص الذي ينشد الكمال في السلوك"^(١).

وتقتضي كثير من الخطابات النأي عن تقديم إجابات مباشرة مطابقة لموضوع الحوار لغرض ما سماه العيني أنفا (المعنى والمصلحة)، إذ يمكن أن يحجم الجواب المطابق المباشر المعلومات المراد الإفصاح عنها من قبل المحيب التي يرى فيها فائدة، على حين أن العدول عن المطابقة من جهة الصلة من شأنه أن يولد استلزامات سياقية سخية تعد أكثر نجاعة ووضوحًا، مع ما تحمله من حمولة حجاجية إقناعية تنبثق من كون المخاطب هو من يضطلع بالاستدلال على المعنى المستلزم، فيكون مساءلاً عما أفضت إليه العملية التأويلية من استخلاص للمعاني المضمرة، كما في النص الحديثي الآتي الذي يحاور فيه رجلٌ يهودي عمرَ ﷺ: "يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال عمر ﷺ: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة"^(٢)، والعيني كما هو دأبه يطرح سؤالاً افتراضياً بشأن خرق مبدأ المطابقة ويجيب عنه محاولاً استكناه الضمني في جواب عمر ﷺ: "فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال...؟ قلت: لما بين أن يوم النزول كان عرفة، ومن المشهورات أن اليوم الذي بعد عرفة عيد

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٣.

(٢) العيني، عمدة القاري، ح ٤٥/١، ج ١/٤٠٩.

للمسلمين، فكأنه قال: جعلناه عيدًا بعد إدراكنا استحقات ذلك اليوم للتعبد فيه" (١)، كما يشرح قول عمر رضي الله عنه (قد عرفنا ذلك اليوم) بقوله "معناه: أنا ما أهملناه ولا خفي علينا زمان نزولها، ولا مكان نزولها، وضبطنا جميع ما يتعلق بها حتى صفة النبي صلى الله عليه وسلم وموضعه في زمان النزول" (٢)، وهو يوجه النظر في تأويله لجواب عمر رضي الله عنه إلى مسألتين تفسران الصلة والمناسبة، الأولى أن ثمة معلومات وقرائن إظهارية أدلى بها عمر رضي الله عنه محاولاً تعديل المحيط المعرفي لمخاويره (اليهودي) الذي ربما كان يجهلها، وهو أن ذلك اليوم (موضوع السؤال) هو يوم عرفة تحديداً، ومن المعارف المشتركة بينهما أن يوم عرفة هو يوم تعبد بل هو الركن الأعظم في الحج، وما بعده هو يوم العيد، ومن المعروف عن المسلمين تعظيمهم لذلك اليوم، فكيف حين يكون موافقاً ليوم (الجمعة) الذي عرف عند المسلمين أيضاً بفضائله وخصوصيته في الصلاة والعبادة! وهذا المشترك الذي أحال إليه عمر رضي الله عنه هو ما سماه العيني (المشهورات)، ولعل اليهودي حين سأل لم يكن على علم بأن (اليوم) المذكور في الآية هو يوم عرفة، وأنه وافق يوم جمعة فاجتمع فيه من ثم "فضلان وشرفان" (٣)، فتلك المشهورات كانت بمثابة المنبهات التي استدعت ما هو محتزن في ذاكرة السائل، ووجهته نحو محاولة الفهم والتأويل والوصول إلى القصد باعتبارها تفترض صلتها بموضوع الحوار، أو مناسبتها لأن تكون جواباً عن السؤال؛

(١) المرجع نفسه، ج ١ / ٤٠٩.

(٢) المرجع نفسه، ج ١ / ٤١٢.

(٣) المرجع نفسه، ج ١ / ٤١٢.

فكل فعل "من أفعال التواصل الإظهارية يبلّغ أو يعبر عن افتراض صلته المثلّي" (١).

والمسألة الثانية هي الاستدلال على قصد عمر رضي الله عنه، فإنه لما عُرف أن ذلك اليوم هو يوم عرفة، والمكان هو عرفة، فهم منه (استحقاق ذلك اليوم للتعبد فيه) واستحقاقه لغاية التعظيم، على أن يكون اليوم التالي هو العيد، فقول العيني (كأنه قال...) إشارة إلى المستلزم الضمني المستدل عليه.

ولم يكتف عمر رضي الله عنه ببيان الزمان والمكان بل أحال أيضًا إلى ما اختزنته الذاكرة عن ذلك اليوم من هيئة مخصوصة للنبي صلى الله عليه وآله يومئذٍ (قائم بعرفة)، ومن المعروف أن قيامه صلى الله عليه وآله حينئذٍ إنما كان لأداء مناسك الحج (حجة الوداع)، واستشهاد عمر رضي الله عنه في جوابه بهيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلوكه التعبدية لا مناص منه، فهو الرسول المقتدى به، المضطلع بحمل الرسالة وتبليغها للأمة، وسلوك النبي وأفعاله - أيّ نبي - حجة ملزمة لأتباعه حتى من منظور الديانات السماوية الأخرى، ومن ثم كانت استشهاد عمر رضي الله عنه بنبي الإسلام أمام اليهودي هو بمثابة احتجاج بالسلطة، وحجة السلطة هنا إنما جاءت داعمة لمجموعة حجج غنية سبقتها، ولعل ذلك ما جعل بيرلمان (Perelman) يصف حجة السلطة بأنها "بدل أن تكون البرهان الوحيد، تحضر لإتمام حجاج غني" (٢)، فقد أحاط عمر رضي الله عنه بأحوال ذلك اليوم الزمانية والمكانية وما احتواه من حدث، وهي

(١) سبيرير، وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة، ص ٢٧٤.

(٢) بيرلمان، وتيتكا، المصنف في الحجاج، ص ٤٦٦.

إحاطة وصفها العيني بأنها "غاية في الضبط"^(١)، والمقصود به الضبط الحجاجي الذي لا يملك معه السائل اليهودي سوى استنباط تعظيم المسلمين لذلك اليوم، والتسليم بأنهم لم يغفلوا عنه كما ظن، بل حاز من العناية والتعظيم والمكانة الدينية والتاريخية ما لم يكن لبقية أيام السنة بما فيها يوم (العيد) الذي احتل قمة السلم الحجاجي لدى السائل.

(١) العيني، عمدة القاري، ج ١ / ٤١٢.

الخاتمة:

استهدف هذا البحث دراسة (العدول عن مطابقة الجواب للسؤال) في الفكر التأويلي لدى العيني من خلال مدونته الموسومة بـ (عمدة القاري شرح صحيح البخاري)، مستثمرًا مبدئين من مبادئ التعاون عند جرايس (Grice): مبدأ الكم، ومبدأ الصلة (المناسبة)، وخلص إلى جملة من النتائج، أبرزها:

- اللغة الشارحة المؤولة عند العيني هي لغة حوارية؛ تفتح إلى محاوره النص تارة، ومحاوره الآخر تارة أخرى، وهي في حوارها مع النص الحديثي تهتم - ضمن ما تهتم به من مضامين - بثنائية السؤال والجواب وما تثيره من إشكالات، وتفتق بشأنها التساؤلات، فإذا بها سؤال عن السؤال، وإجابة تستجلي الإجابة، وسعي حثيث إلى استنهاض الاستدلالات من أجل استنطاق الأقوال المضمرة، والولوج إلى المقاصد الثاوية خلف السؤال وجوابه.
- من أهم مظاهر عدول الجواب عن مطابقة السؤال التي استوقفت العيني: العدول الكمي، والعدول عن مبدأ الصلة (المناسبة)، وفي مواضع عدة لم يكن العيني يفصل بينهما، فهو يرى أن ثمة تواشجًا بينهما وتكاملاً دفعه إلى المزج بينهما في خضم العملية التأويلية، فالعدول الكمي محكوم بضرورة الحوار وما يفضي إليه من آثار سياقية وجهود تأويلية تتعالق ومبدأ المناسبة (الصلة).

- يرى العيني أن جنوح المجيب إلى العدول في جوابه عن مطابقة السؤال إنما كان لقصد الفائدة (التعليمية أو التشريعية) واستيفاء حاجة السائل، أو توضيح إشكالات قد يثيرها الجواب المطابق، أو لغرض تأديبي، أو بلاغي، أو حجاجي.
- تجشم في أثناء مسيرته التأويلية دورين اثنين: دور المؤول الداخلي المشارك في المهمة التأويلية من خلال إسناده مجموعة من الافتراضات والمقاصد إلى الشخصيات المتحاوره، واستبطان ذهن المجيب وفهمه، فهو هنا أحد المتحاورين، ودور المؤول الخارجي الشارح للنص من خلال تفتيق الأسئلة المفترضة التي تستجلي مواطن الإشكالات المنبثقة من انتهاك المطابقة بين السؤال والجواب، والإجابة عنها بما يكشف المغزى والغرض.
- سعى إلى استظهار الضمني في ثنائية السؤال والجواب من خلال معالجة الاستلزمات التخاطبية الناشئة عن خرق مبدأ المطابقة، ورسَم المسالك الاستدلالية الموصلة إلى المستلزم المتواري وراء الملفوظات.
- تناول ثنائية السؤال والجواب في مواضع الصمت والحذف، وسعى إلى ملء الفراغ النصي باستحضار النص الذهني المفترض على لسان السائل أو المجيب، مستعيناً بالقرائن المقامية.
- اهتم بالوظائف الحجاجية الإقناعية التي أسفرت عنها مواضع العدول، ودورها في ترشيد السلوك والمواقف.

- عني بالجوانب الذهنية الإدراكية النفسية المتصلة بالفهم والمقاصد، وانعكاسها على صناعة السؤال والجواب.
- استثمر العيني في منهجه التأويلي كفاءته الموسوعية التي استندت إلى شتى المعارف النحوية والدلالية والبلاغية والدينية والتاريخية، كما عني باستحضار الآيات القرآنية والنصوص الحديثية الأخرى التي تقوم بدور الشاهد والمساند في عملية استنباط المعاني الضمنية من النص المشروح، وتناول آراء الشراح الآخرين، واختلفت مواقفه بين تبني بعض تلك الآراء، ورفض بعضها الآخر والرد عليه.

المصادر والمراجع:

- إيفانز، فيفيان، اللغة والزمن مقارنة لغوية معرفية، ترجمة: محمد زياد كبة، ط ١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ٢٠١٨م.
- بازي، محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ط ١، منشورات الاختلاف: الجزائر، منشورات ضفاف: بيروت، ٢٠١٣م.
- بلنجر، ليونيل، عدة الأدوات الشارحة، ترجمة: قوتال فضيلة، ضمن كتاب: "الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ط ١، عالم الكتب الحديث: الأردن، ٢٠١٠م.
- بيرلمان، شاييم، وتيتيكا لوسي أولبرخت، المصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، ترجمة: محمد الولي، ط ١، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ٢٠٢٣م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، اللمع في العربية، تحقيق: سميح أبي مغلي، دار مجدلاوي: عمان، ١٩٨٨م.
- الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٩٠م.
- أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف، البحر المحیط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠١م.

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد بسيوني، ط ١، كلية الآداب جامعة طنطا، ١٩٩٩م.
- رحامي، يوسف، "الصمت معطى تداولياً ونسقاً خفياً في الخطاب"، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، العدد الثالث، ٢٠١٨م.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، رسالتان في اللغة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر: عمان، ١٩٨٤م.
- روبول، آن، وموشلار، جاك، تداولية الخطاب من تأويل الملفوظ إلى تأويل الذات، ترجمة: حسن بوتكلاي، ط ١، كنوز المعرفة: عمان، ٢٠٢٠م.
- سبيربر، دان، وولسون، ديدري، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ٢٠١٦م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط ١، دار الجيل: بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن السراج، محمد بن سهل، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط ٣، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٩٩٦م.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٣م.

- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ، تحقيق: محمد باسل، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٦م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي: القاهرة، ١٩٨٨م.
- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدي، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٨م.
- الصبان، محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٧م.
- صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط ٢، دار الفارابي: بيروت، ٢٠٠٧م.
- صولة، عبد الله، في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، ط ١، مسكلياني للنشر والتوزيع: تونس، ٢٠١١م.
- الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: عمر حسن القيام، ط ١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم: دبي، ٢٠١٣م.
- ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية: بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
- عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط ٣، المركز الثقافي العربي: المغرب، ٢٠١٢م.

- عبيد، حاتم، "نظرية التأدب في اللسانيات التداولية"، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون: الكويت، المجلد ٤٣، العدد ١، ٢٠١٤م.
- العيني، بدر الدين أبو محمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد الله محمود عمر، ط ١، دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠١م.
- الفاكهي، جمال الدين عبد الله بن أحمد، شرح الحدود النحوية، تحقيق: محمد الطيب الإبراهيم، ط ١، دار النفائس: بيروت، ١٩٩٦م.
- الكرمانى، محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق: شمران العجلي، دار القبلة للثقافة الإسلامية: جدة، مؤسسة علوم القرآن: بيروت، د.ت.
- كوبلي، بول، دليل راوتليدج لعلم السيمياء واللغويات، ترجمة: هبة شندب، ط ١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠١٦م.
- موشلار، جاك، وروبول، آن، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس وآخرين، ط ١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٣م.
- يول، جورج، التداولية، ترجمة: قصي العتايي، ط ١، الدار العربية للعلوم ناشرون: بيروت، ٢٠١٠م.

References

- Evans, Vyvyan, Language and Time: A Cognitive Linguistics Approach, Cambridge University Press, 2013m.
- Bāzī, Muḥammad, Naẓarīyat al-ta'wīl al-taqābulī : muqaddimāt li-ma'rifat badīlah bi-al-naṣṣ wa-al-khiṭāb, Ṭ1, Manshūrāt al-Ikhtilāf : al-Jazā'ir, Manshūrāt Dīfāf : Bayrūt, 2013m.
- blnjr, Līūnyl, 'iddat al-adawāt al-shāriḥah, tarjamat : Qūṭāl Faḍilat-ḍimna Kitāb : "al-Ḥajjāj mafhūmuḥ wa-majālātuh, i'dād wa-taqdīm : Ḥāfiẓ Ismā'īlī 'Alawī, Ṭ1, 'Ālam al-Kutub al-ḥadīth : al-Urdun, 2010m.
- byrlmān, shāyym, wtytykā Lūsī awlbrkht, al-muṣannaf fī alḥijāj : al-khaṭābah al-Jadīdah, tarjamat : Muḥammad al-Walī, Ṭ1, Dār al-Kitāb al-jadīd al-Muttaḥidah : Bayrūt, 2023m.
- Ibn Jinnī, Abū al-Faṭḥ 'Uthmān, al-Luma' fī al-'Arabīyah, taḥqīq : Samīḥ Abī Mughlī, Dār Majdalāwī : 'Ammān, 1988m.
- al-Jawhārī, al-ṣiḥāḥ, taḥqīq : Aḥmad 'Abd al-Ghafūr 'Aṭṭār, ṫ4, Dār al-'Ilm lil-Malāyīn : Bayrūt, 1990m.
- Abū Ḥayyān, Athīr al-Dīn Muḥammad ibn Yūsuf, al-Baḥr al-muḥīṭ, taḥqīq : 'Ādil Aḥmad 'Abd al-Mawjūd wa-ākharīn, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Imyyah : Bayrūt, 2001m.
- al-Rāghib al-Aṣfahānī, Abū al-Qāsim al-Ḥusayn, tafsīr al-Rāghib al-Aṣfahānī, taḥqīq : Muḥammad Basyūnī, Ṭ1, Kullīyat al-Ādāb Jāmi'at Ṭantā, 1999m.
- rḥāymy, Yūsuf, "al-ṣamt mu'tā tdāwlyyan wnsqan khfyyan fī al-khiṭāb", Majallat al-'Umdah fī al-lisāniyāt wa-tahlīl al-khiṭāb, Jāmi'at Muḥammad Būdyāf, al-Masīlah, al-Jazā'ir, al-'adad al-thālith, 2018m.
- alrrumāny, Abū al-Ḥasan 'Alī ibn 'Īsā, Risālatān fī al-lughah, taḥqīq : Ibrāhīm alsāmurrā'y, Dār al-Fikr : 'Ammān, 1984m.
- rwbwl, Ān, wmwshlār, Jāk, tadāwulīyah al-khiṭāb min Ta'wīl al-malfūz ilā Ta'wīl al-dhāt, tarjamat : Ḥasan bwtklāy, Ṭ1, Kunūz al-Ma'rīfah : 'Ammān, 2020m.
- sbrybr, Dan, wwlswn, dydry, Naẓarīyat al-ṣilah aw almunāsabah fī al-tawāṣul wa-al-idrāk, tarjamat : Hishām al-Khalīfah, Dār al-Kitāb al-jadīd al-Muttaḥidah : Bayrūt, 2016m.
- al-Sakhāwī, Shams al-Dīn Muḥammad ibn 'Add al-Raḥmān, al-ḍaw' al-lāmi' li-ahl al-qarn al-tāsi', Ṭ1, Dār al-Jīl : Bayrūt, 1992m.
- Ibn al-Sarrāj, Muḥammad ibn Sahl, al-uṣūl fī al-naḥw, taḥqīq : 'Abd al-Ḥusayn al-Faṭlī, ṫ3, Mu'assasat al-Risālah : Bayrūt, 1996m.
- al-Sakkākī, Abū Ya'qūb Yūsuf, Miftāḥ al-'Ulūm, taḥqīq : Na'im Zarzūr, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, 1983m.
- al-Samīn al-Ḥalabī, Aḥmad ibn Yūsuf, 'Umdat al-ḥuffāz, taḥqīq : Muḥammad Bāsil, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, 1996m.
- Sībawayh, Abū Bishr 'Amr ibn 'Uthmān, al-Kitāb, taḥqīq : 'Abd al-Salām Hārūn, ṫ3, Maktabat al-Khānjī : al-Qāhirah, 1988m.

- al-Sirāfī, Abū Sa'īd al-Ḥasan ibn 'Abd Allāh, sharḥ Kitāb Sībawayh, taḥqīq : Aḥmad Ḥasan Mahdalī, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, 2008m.
- al-Ṣabbān, Muḥammad ibn 'Alī, Ḥāshiyat al-Ṣabbān 'alā sharḥ al-Ushmūnī, taḥqīq : Ibrāhīm Shams al-Dīn, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, 1997m.
- ṣwlah, 'Abd Allāh, alḥijāj fī al-Qur'ān min khilāl aḥamm khaṣā'ishuhu al-uslūbiyah, ṭ2, Dār al-Fārābī : Bayrūt, 2007m.
- ṣwlah, Allāh, fī Nazariyat alḥijāj : Dirāsāt wa-taṭbīqāt, Ṭ1, msklyāny lil-Nashr wa-al-Tawzī' : Tūnis, 2011m.
- al-Ṭībī, Sharaf al-Dīn al-Ḥusayn ibn 'Abd Allāh, Fattūh al-ghayb fī al-kashf 'an qinā' al-rayb, taḥqīq : 'Umar Ḥasan al-Qayyām, Ṭ1, Jā'izat Dubayy al-Dawliyah lil-Qur'ān al-Karīm : Dubayy, 2013m.
- Ibn 'Ādil, Abū Ḥafṣ 'Umar ibn 'Alī, al-Lubāb fī 'ulūm al-Kitāb, taḥqīq : Ādil Aḥmad 'Abd al-Mawjūd wa-ākharīn, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, Ṭ1, 1998m.
- 'Abd al-Raḥmān, Ṭāhā, al-lisān wa-al-mīzān aw al-Takawthur al-'aqlī, ṭ3, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī : al-Maghrib, 2012m.
- 'Ubayd, Ḥātim, "Nazariyat al-Ta'addub fī al-lisāniyāt al-Tadāwulīyah", 'Ālam al-Fikr, al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn : al-Kuwayt, al-mujallad 43, al'dd1, 2014m.
- al-'Aynī, Badr al-Dīn Abū Muḥammad, 'Umdat al-Qārī sharḥ Ṣaḥīḥ al-Bukhārī, taḥqīq : 'Abd Allāh Maḥmūd 'Umar, Ṭ1, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah : Bayrūt, 2001m.
- al-Fākihī, Jamāl al-Dīn 'Abd Allāh ibn Aḥmad, sharḥ al-ḥudūd al-naḥwīyah, taḥqīq : Muḥammad al-Ṭayyib al-Ibrāhīm, Ṭ1, Dār al-Nafā'is : Bayrūt, 1996m.
- al-Kirmānī, Maḥmūd ibn Ḥamzah, gharā'ib al-tafsīr wa-'ajā'ib al-ta'wīl, taḥqīq : Shamrān al-'Ajalī, Dār al-Qiblah lil-Thaqāfah al-Islāmīyah : Jiddah, Mu'assasat 'ulūm al-Qur'ān : Bayrūt, D. t.
- Copley, Paul, The Routledge Companion to Semiotics and Linguistics, Routledge, New York, 2001m.
- mwshlār, Jāk, wrwbwl, Ān, al-Tadāwulīyah al-yawm 'ilm jadīd fī al-tawāṣul, tarjamat : Sayf al-Dīn Daghfūs wa-ākharīn, Ṭ1, al-Munazzamah al-'Arabīyah lil-Tarjamah : Bayrūt, 2003m.
- Yul, George, Pragmatics, Oxford University Press, 1996m.